بين هداية الصراط المستقيم وغواية أهل الجحيم

دراسة بحثية تحليلية لفكر ابن تيمية
في كتاب اقتضاء الصراط المستقيم
لمخالفة أصحاب الجحيم

اعداد الباحث:

التجاني صلاح عبدالله المبارك

1447هـ_ 2026م

بين هداية الصراط المستقيم وغواية أهل الجحيم

دراسة بحثية تحليلية لفكر ابن تيمية
في كتاب اقتضاء الصراط المستقيم
لمخالفة أصحاب الجحيم

اعداد الباحث:

التجاني صلاح عبدالله المبارك

1447هـ_ 2026م

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف، ولا يسمح بطبع هذا الكتاب طبعة ورقية أو الكترونية أو ترجمته لأي جهة نشر إلا بموافقة المؤلف، ويسمح بالاقتباس مع الإشارة إلى المصدر.

ملخص الدراسة

تتناول هذه الدراسة كتاب اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم لشيخ الإسلام "ابن تيمية"، وهو من أبرز المصنفات التي رسخت وأحكمت قاعدة النهي عن التشبّه بغير المسلمين، واعتبره المتخصصون المرجع الأوسع والأمتن في هذا الباب؛ لما احتوى عليه من استدلالات متينة، ونقول موسّعة من الكتاب والسنّة وأقوال السلف، إضافة إلى معالجة دقيقة لآثار التشبّه في السلوك والمجتمع والهوية.

افتتحت الدراسة بمقدّمة تبرز دور العلماء الذين قيّضهم الله لإحياء سنّة نبيه، وتذكير الناس بدينهم، وتعزيز الاقتداء بالصراط المستقيم، والتحذير من مزالق أهل الجحيم.

ثم قسمت البحث إلى قسمين أساسيين:

القسم الأول: التعريف بشيخ الإسلام "ابن تيمية"

ويتضمن بيان نسبه ونشأته العلمية، ومراحل تكوينه الفكري، وشيوخه وتلاميذه، إضافة إلى عرض جوانب شخصيته العلمية، وسعة اطّلاعه، ومكانته بين علماء عصره. كما تناولت الدراسة سماحته مع مخالفيه رغم اختلافه معهم، ثم عرضت تقييماً لمكانته الدينية والعلمية من خلال أقوال العلماء فيه.

القسم الثاني: الملاحظات العلمية على كتاب اقتضاء الصراط المستقيم ويركز هذا القسم على تحليل الكتاب من حيث بنائه، ومنهجه الاستدلالي، وطريقة المصنّف في تناول مسألة التشبه بالكفار (المغضوب عليهم والضالين). وبيّنت الدراسة أن " ابن تيمية" جمع مادته بأسلوب استقرائي شامل، وأقام أحكامه على أدلة قطعية، مما جعل الكتاب موسوعة متخصصة لا نظير لها في موضوعها. كما أبرزت الدراسة نقاط القوة في منهجه، ومواطن العمق في تحليل الظواهر المرتبطة بالتقليد والتأثر الحضاري.

اعتمدت الدراسة على المنهج الوصفي في عرض حياة المؤلف وسياق كتابه، وعلى المنهج الاستقرائي في تتبع الأدلة والنصوص وتحليلها؛ للوصول إلى رؤية متوازنة حول قيمة الكتاب العلمية ودوره في التأصيل لمسألة التشبّه.

الكلمات المفتاحية: اقتضاء الصراط المستقيم-مخالفة أصحاب الجحيم-شيخ الإسلام ابن تيمية-التشبّه بغير المسلمين.

Abstract

This study examines Iqtidā al-Ṣirāṭ al-Mustaqīm wa Mukhalafat Aṣḥāb al-Jaḥīm by Shaykh al-Islām Ibn Taymiyyah, a landmark work that rigorously affirms the prohibition of imitating non-Muslims. Esteemed by scholars as the most authoritative reference on this topic, the book integrates comprehensive evidence from the Qur an, Sunnah, and statements of the pious predecessors, while addressing the societal, behavioral, and identity-related implications of imitation.

The research begins with an account of Ibn Taymiyyah s life, including his lineage, scholarly development, teachers, students, and his position among contemporaneous scholars. It highlights his intellectual rigor, vast knowledge, ethical character, and his measured leniency toward opponents, reflecting the depth and balance of his scholarship.

The analytical section focuses on the book s structure and methodological approach. Ibn Taymiyyah applies a meticulous inductive method, deriving rulings from definitive evidence, producing a work of unparalleled scholarly depth. The study underscores the robustness of his reasoning and the sophistication of his analysis regarding imitation and cultural influence.

Methodologically, the study combines descriptive analysis of the author and historical context with an inductive review of texts and evidences, offering a nuanced and balanced understanding of the book s scholarly significance and its enduring role in guiding Muslims toward the straight path while avoiding imitation of non-Muslims.

Keywords: Iqtidā al-Ṣirāṭ al-Mustaqīm- Mukhalafat Aṣḥāb al-Jaḥīm- Shaykh al-Islām Ibn Taymiyyah- Imitation of Non-Muslims.

الملخص المفاهيمي

تركز الدراسة على تحليل كتاب اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم لشيخ الإسلام "ابن تيمية"، باعتباره مرجعًا أساسيًا في مسألة النهي عن التشبّه بغير المسلمين. تهدف الدراسة إلى إبراز دور الكتاب في توثيق القواعد الشرعية والفكرية المتعلقة بالاقتداء بالصراط المستقيم ومخالفة أصحاب الهوى والطغيان، من خلال استعراض الأدلة الشرعية من القرآن والسنة وأقوال السلف الصالح.

تعرض الدراسة سيرة "ابن تيمية" العلمية والفكرية، بما في ذلك نشأته، ومعلميه، وتلاميذه، ومكانته بين علماء عصره، مع التركيز على منهجه العلمي وأسلوبه الاستدلالي الفريد، الذي يجمع بين الدقة الاستقرائية والقواعد القطعية. كما تحلل الدراسة أثر الكتاب على السلوك والمجتمع والهوية، موضحة كيف ساهم في ترسيخ الوعي الديني والفكري لدى المسلمين. منهجيًا، تستخدم الدراسة المنهج الوصفي لعرض حياة المؤلف وسياق كتابه، والمنهج الاستقرائي لتحليل النصوص والأدلة، بهدف تقديم رؤية متوازنة ودقيقة لقيمة الكتاب العلمية ودوره في تأصيل مبدأ الالتزام بالصراط المستقيم ومفارقة ومخالفة أهل الجحيم.

1.الاطار العام

المقدمة1.1

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هاديَ له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، صلّى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلّم تسليمًا كثيرًا.

أمّا بعد؛

لقد قيض الله تعالى لهذا الدين رجالا يحيون سنة نبيه، يذكرون الناس ان نفعت الذكرى، وكانت آثارهم وبقايا مدادهم باقية بإذن الله تعالى، تحمل الحث على الاقتداء بصراط الله المستقيم ومخالفة اصحاب الطغيان والهوى والجحيم، ومن هولاء العلماء يبرز شيخ الإسلام ابن تيمية" الذي شغل العالم بمعارفه وفكره المستقى من كتاب الله وسنة رسوله الكريم " صلى الله عليه وسلّم، ودعوته إلى العودة إلى الكتاب والسنة وأقوال السلف الصالح، ونقده للبدع والفلسفات المتعارضة مع النصوص الشرعية، فملأت علومه وفكره المتوقد الافاق، وتناقلت سيرته الأجيال، لما فيها من فوائد عظيمة وسيرة طيبة، وهذه دراسة قليلة في محتواها، نحسبها عظيمة في معناها، عن شيخ الاسلام "ابن تيمية" ومؤلفه (اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم)مع ملاحظات وتأملات تحليلية، والحق وجدت فيه صفة قد تبدو غربية وصعبة بعض الشيء على النفس البشرية، فالطبيعي هو الانتصار للنفس عند وقوع الظلم في وقتها ورد الصاع صاعين، لكن كانت صفته أن يعفو عمن ظلمه، ليس ذلك وحسب بل يدعو الله لهم ان كان فيهم خيرا ان يردهم ردا جميلا، فقد قال تلميذه ابن القيم: "جئتُ يومًا مُبشِّرًا لابن تيمية بموت أكبر أعدائه، وأشدِّهم عَداوةً وأذًى له؛ فنهرني

وتنكَّر لي واسترجع، ثم قام من فوره إلى بيت أهله فعزَّاهم، وقال: إني لكم مكانه، ولا يكون لكم أمرٌ تحتاجون فيه إلى مساعدة إلا وساعدتُكم فيه؛ فسُرُّوا به ودعوا له، وعظَّمُوا هذه الحال "منه، فرحمه الله ورضي عنه.[1]

وكتب الإمام "ابن تيمية" رسالةً إلى تلاميذه وأحبابه، يتحدَّث فيها عن خصومه، قال فيها: "أنا أُحبُّ لهم أن ينالوا من اللذَّة والسرور والنعيم ما تَقَرُّ به أعينُهم، وأن يفتح لهم من معرفة الله وطاعته والجهاد في سبيله ما يصِلُون به إلى أعلى الدرجات".[2]

و قال ابن القيم: " ما رأيتُ ابن تيمية يدعو على أحدٍ من أعدائه قطُّ، وكان يدعو لهم ". [3]

وقد قال الله سبحانه:(لَّا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ ۚ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا (148) إِن تُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَن سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا)(149).

" قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس : (لا يحب الله الجهر بالسوء من القول) يقول : لا يحب الله أن يدعو أحد على أحد ، إلا أن يكون مظلوما ، فإنه قد أرخص له أن يدعو على من ظلمه ، وذلك قوله : (إلا من ظلم) وإن صبر فهو خير له . وقال أبو داود : حدثنا عبيد الله بن معاذ ، حدثنا أبي ، حدثنا سفيان ، عن حبيب ، عن عطاء ، عن عائشة قالت : سرق لها شيء ، فجعلت تدعو عليه ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم " لا تسبخي عنه " . وقال الحسن البصري : لا يدع عليه ، وليقل : اللهم أعني عليه ، واستخرج حقي منه . وفي رواية عنه قال : قد أرخص له أن يدعو على من ظلمه من غير أن يعتدي عليه . وقال عبد الكريم بن مالك الجزري في هذه الآية : هو الرجل يشتمك فتشتمه ، ولكن إن افترى عليك فلا تفتر عليه، لقوله : (ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل) [الشورى : 41] ".[4]

وعلى صفاته الرفيعة العالية وقلمه السيال، فهذه لحظات من الملاحظات المتواضعة على مؤلفه القيم النفيس ، وبعد ذلك فاننا نسأل الله ان يجعلنا من المتأسين بهدي النبي صلى الله عليه وسلم، الذابين عن سنته، المقتضين والمقتفين لصراط الله المستقيم، والمخالفين لاصحاب الجحيم.

وقد قسمت هذه الدراسة عن شيخ الاسلام إلى قسمين أساسيين:

القسم الأول: التعريف بشيخ الإسلام "ابن تيمية"

ويتضمن بيان نسبه ونشأته العلمية، ومراحل تكوينه الفكري، وشيوخه وتلاميذه، إضافة إلى عرض جوانب شخصيته العلمية، وسعة اطّلاعه، ومكانته بين علماء عصره. كما تناولت الدراسة سماحته مع مخالفيه رغم اختلافه معهم، ثم عرضت تقييماً لمكانته الدينية والعلمية من خلال أقوال العلماء فيه.

القسم الثاني: الملاحظات العلمية على كتاب اقتضاء الصراط المستقيم ، ويركز هذا القسم على تحليل الكتاب من حيث بنائه، ومنهجه الاستدلالي، وطريقة المصنّف في تناول مسألة التشبه بالكفار (المغضوب عليهم والضالين). وبيّنت الدراسة أن "ابن تيمية"جمع مادته بأسلوب استقرائي شامل، لذا يعد المؤلف مرجعاً أساسياً في الفكر الإسلامي، وخاصة في باب تقرير قاعدة النهي عن التشبه بغير المسلمين (المغضوب عليهم والضالين) وقد أجمع المتخصصون

على منزلته، حيث وُصف بأنه أفضل من كتب عن أحكام التشبه بالكفار وقد جمع المصنف في هذا العمل كماً هائلا من الأدلة والبراهين من الكتاب والسنة وأقوال السلف الصالح، مما يجعله موسوعة فريدة في بابه، ويحتوي على تفاصيل استدلالية لا تجدها في مؤلف آخر.

المشكلة البحثية وتساؤلاتها2.1

أولاً: المشكلة البحثية

تتمثل الإشكالية البحثية لهذه الدراسة في الكشف عن الأصول والمنطلقات المنهجية التي اعتمد عليها "ابن تيمية" في معالجته لمسألة التشبّه، وتحليل الأسس العلمية التي قام عليها بناؤه الاستدلالي والتأصيلي، في كتابه اقتضاء الصراط المستقيم، وكيف أسهمت هذه الأصول في صياغة تصوره لمفهوم مخالفة أهل الجحيم وترسيخ الهوية الإسلامية؟ وكيفية بناء حججه التي تهدف إلى تعزيز التمايز الإسلامي.

ثانياً: أسئلة البحث الرئيسة

1. ما الأصول الشرعية التي بنى عليها "ابن تيمية" تصوره؟ هل تتمثل في نصوص الكتاب، نصوص السنة، فهم السلف، قواعد المصلحة والمفسدة، أم مبادئ أخرى؟

2. كيف قام باستجلاء هذه الأصول وكشفها داخل الكتاب؟

3. كيف استدعى الأدلة والنقول؟ وما طبيعة النقول التي اعتمد عليها (سلفية، لغوية، تاريخية، فقهية)؟

4. كيف أسهم الكتاب في تأكيد الهوية الإسلامية المتميزة؟ وما العلاقة بين هذا المبدأ وبين مقاصد الشريعة كما يعرضها المؤلف؟

5. هل اعتمد "ابن تيمية" منهجاً تراكمياً أم مقاصدياً أم نصياً صرفاً في معالجة الموضوع؟ وكيف انعكس ذلك على بنية الكتاب الحجاجية؟

3.1أهداف الدراسة

1. استكشاف الأصول المنهجية والشرعية التي اعتمد عليها "ابن تيمية" في بناء تصوّره لمسألة مخالفة أهل الكتاب، والكشف عن الأسس الفكرية التي شكلت بنية الكتاب.

2. تحليل منهج المؤلف في استدعاء الأدلة والنقول من القرآن والسنّة وأقوال السلف.

3. إبراز دور الكتاب في ترسيخ الهوية الإسلامية المتميّزة عبر دراسة الخطاب الشرعي الذي اعتمده المؤلف، وبيان كيف يجعل التمايز مكوّناً مركزياً واصيلا في بناء الهوية.

4. تقديم قراءة تحليلية تدرس الكتاب من زاويته المنهجية.

4.1 أهمية الدراسة

1. إعادة بناء المنطلقات الفكرية التي يستند إليها كتاب اقتضاء الصراط المستقيم

تمثّل الدراسة إضافة نوعية لأنها لا تكتفي بشرح الأحكام الواردة في اقتضاء الصراط المستقيم، بل تعيد قراءة البنية المنهجية العميقة التي قام عليها الكتاب.

2 . تتجلّى أهمية الدراسة في إسهامها بتفسير منهج "ابن تيمية" في تأصيل الهوية الإسلامية

إذ يكشف الكتاب عن إحدى أهم رؤاه في ترسيخ مبدأ التميّز الديني والثقافي، ودراسة هذا الجانب تساعد في فهم تطوّر خطاب الهوية في التراث الإسلامي، وكيفية تشكّل فكرة التميّز كأساس حضاري.

3. إثراء حقل الدراسات التيمية

تساعد الدراسة في تقديم فهم أدق لمنهج "ابن تيمية" في معالجة قضايا الاجتماع والتقاليد والعادات، مما يسهم في تجديد قراءة تراثه على أسس علمية مُحكمة.

حدود الدراسة 5.1

1. الحدود الموضوعية:

تقتصر الدراسة على تحليل الأصول والمنطلقات المنهجية في كتاب اقتضاء الصراط المستقيم، وما يرتبط بها من مفاهيم التشبّه والتميّز والهوية الإسلامية.

2.ال:حدود النصيّة

تنحصر المادة الأساسية في متن كتاب اقتضاء الصراط المستقيم، مع الاستعانة بقدر محدود من نصوص "ابن تيمية" الأخرى عند الحاجة لتفسير منهجه أو توضيح قاعدة استدلالية، دون تحويل البحث إلى مقارنة شاملة بين كتبه.

3. الحدود المنهجية:

تعتمد الدراسة منهج التحليل النصي والمنهجي، مع التركيز على تفكيك البنية الحجاجية والاستدلالية للكتاب. ولا تتناول الدراسة تطبيقات معاصرة أو إسقاطات اجتماعية حديثة، إلا في حدود الإشارة السريعة التي توضّح أهمية الموضوع.

منهجية الدراسة 6.1

1. ال منهج التحليلي النصّي

تعتمد الدراسة منهج التحليل المباشر لنصّ كتاب اقتضاء الصراط المستقيم، وذلك من خلال تفكيك البنية الداخلية للكتاب، ورصد الأصول التي بنى عليها "ابن تيمية" تصوّره لمسألة التشبّه والتميّز، مع قراءة متأنّية لأسلوب الاستدلال، وترتيب الحجج، وطريقة بناء القاعدة الشرعية.

2. المنهج الوصفي والمنهج الاستقرائي

اعتمدت الدراسة على المنهج الوصفي في عرض حياة المؤلف وسياق كتابه، وعلى المنهج الاستقرائي في تتبع الأدلة والنصوص وتحليلها؛ للوصول إلى رؤية متوازنة حول قيمة الكتاب العلمية ودوره في التأصيل لمسألة التشبّه.

3. المنهج النقدي التفسيري

بعد جمع الأصول وتحليلها، تعمل الدراسة على تقويم البناء الحجاجي للكتاب: مدى اتساقه، قوته، حدوده، وطريقة صياغة المؤلف لفكرة التميّز الإسلامي ، مع بيان كيفية ربطه بين النصّ الشرعي والسلوك الحضاري.

الدراسات السابقة7.1

_1دراسة حقيقة الهوية الإسلامية ومظاهرها في كتاب اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم لابن تيمية، د. مها بنت جريس بن محمد الجريس (2016).

تُعدّ دراسة الدكتورة مها بنت جريس بن محمد الجريس [5] من أهم البحوث التي تناولت كتاب اقتضاء الصراط المستقيم من زاوية فكرية اجتماعية، وهذا ما يجعلها مرجعاً مهماً في مسار الدراسات التي تربط بين مفهوم الهوية الإسلامية وبين مبدأ المخالفة كما صاغه شيخ الإسلام "ابن تيمية".

1. منهج الدراسة

اعتمدت الباحثة على منهج التتبّع والاستقراء، من خلال جمع نصوص الكتاب وتحليلها في وحدات موضوعية تكشف تصور" ابن تيمية" لفكرة الهوية الإسلامية.

وكان المنهج قائماً على:

1_ رصد المواضع ذات الصلة بالتميّز والمخالفة.

2_ إعادة تجميعها في محاور كبرى.

2. أهم ما توصّلت إليه الدراسة

خلصت الدراسة إلى أن الهوية الإسلامية عند" ابن تيمية" تتمحور حول قاعدة المخالفة، وأن هذه القاعدة ليست حكماً فرعياً، بل مبدأ تأسيسي يوجّه سلوك المسلم ويضبط علاقته بالآخر، بمعنى أن التميّز الإسلامي يُرسيه "ابن تيمية" باعتباره التزامًا بترك مناهج المخالفين (أهل الجحيم)، وليس بمجرد التقيد بالمواصفات الشكلية، وهو ما يتوافق مع عنوان الكتاب نفسه.

وقد أَقرّت الباحثة ضوابط عديدة تنبثق عن هذه القاعدة. كما حدّدت الباحثة مظاهر الهوية كما يطرحها "ابن تيمية" في ثلاثة مسارات رئيسية:

1. المظاهر الفكرية للهوية

يتناول البعد الفكري للهوية ما يرتبط بالعقيدة والسلوك العبادي. ووفقًا للدراسة، تبرز المعتقدات والعبادات كمحور أساسي من مظاهر الهوية الإسلاميّة. فالتزام المسلم بمعتقدات صحيحة وأصول العقيدة الخالصة لله، وأداء العبادات بنية خالصة ووفق أحكام الكتاب والسنة، يجسدان البُعد الفكري لهويته. وتشير الباحثة إلى أن تعزيز الهوية يبدأ من التأكيد على صحة العقيدة (التوحيد) والبعد عن التشبه بمنهج الفرق المخالفة، وكذلك الالتزام بالعبادات الشرعية بوصفها من أهم سمات التميّز الإسلامي.

2. المظاهر الاجتماعية للهوية

يقصد بها ما يظهر في هيئة المسلم وتصرفاته وعاداته الظاهرة. حددت الدراسة الهيئات والعادات كتعبير عن المظاهر الاجتماعية لهويته. فاللباس، وحُسن المعاملة والأخلاق، وأساليب الحياة اليومية التي تكوّن العادات (كآداب الطعام والشراب، والأخلاقيات الأسرية والاجتماعية) تعدّ عناصر اجتماعية تكشف عن تمايز هوية المسلم عن غيره. ومن هذا المنطلق، تُعتبر المحافظة على هيئة محتشمة وعادات شرعية وابتعاد عن تقليد مناحي الحياة للمخالفين (أهل الكتاب والأديان الأخرى) جزءًا من التعبير العملي عن الهوية الإسلامية المتميزة.

3. المظاهر الحضارية للهوية

تشمل هذه المظاهر السمات الثقافية واللغوية والأعياد والشعارات. فنظرًا لأهمية اللغة والتواصل الثقافي في توحيد الأمة، تؤكد الدراسة أن اللغة العربية والرموز والشعارات الإسلامية (مثل التسبيح، والأذان) والأعياد المحددة (العيدَيْن) من أهم أطر الهوية الحضارية. فقد «حددّت مظاهر الهوية لتشمل المظاهر الحضارية المتمثلة في اللغة والأعياد والرموز والشعارات». وباختصار، يعتبر أي رمز لغوي أو ثقافي خاص بالأمة الإسلامية (لغة القرآن، وشعائرها الاحتفالية، ورموز دينها) من مظاهر هويتها التي يميزها عن غيرها، ويعزز ارتباطها برصيدها الحضاري الإسلامي.

3. القيمة الحقيقية لهذه الدراسة

تكمن أهمية هذا البحث في أنه نقل قراءة الكتاب من مستواه الفقهي إلى مستواه الفكري والحضاري؛ إذ لم يعد اقتضاء الصراط المستقيم مجرّد نصّ فقهي يعالج أحكام التشبّه، بل ظهر عبر هذه الدراسة بوصفه إطاراً متكاملا لتحديد الهوية المسلمة في مقابل الآخر الديني والثقافي.

كتاب نقد الخطاب السلفي (ابن تيمية نموذجًا)لمؤلفه رائد السمهوري.2010_2

) » يُعدّ كتاب «نقد الخطاب السلفي (ابن تيمية نموذجاًمن الأعمال التي أثارت قدراً من الجدل في حقل الدراسات الفكرية المعاصرة، من حيث بنيته التحليلية واتجاهه النقدي الذي يقوم على مقاربة انتقائية للمفاهيم، تميل في مواضع متعددة إلى إعادة تركيب المصطلحات خارج سياقاتها الأصلية، بما يفضي إلى قدر من الالتباس المنهجي في تمثّل الخطاب موضوع الدراسة .ورغم ما يعلنه المؤلف من التزامٍ بالحياد المعرفي والانفتاح على النقد والتصويب، إلا

أن القراءة الفاحصة تكشف عن توتر واضح بين هذا الادعاء وبين آليات الاشتغال النصي التي يعتمدها، والتي تتداخل فيها الحدود بين التحليل والتأويل الموجَّه.

يمكن مقاربة هذا النقل الذي يقدّمه السمهوري بوصفه نموذجًا دالًا على نمطٍ من الكتابة النقدية التي تتوسّل خطابًا إشكاليًا مزدوج البنية؛ إذ يجمع بين دعوى التحرّر المعرفي والانفتاح النقدي من جهة، وبين انزياحات تأويلية مُسبقة تُلقي بظلالها على مسار التحليل من جهة أخرى، بما يجعل النتيجة أقرب إلى إعادة إنتاج موقفٍ تقويمي جاهز، لا إلى بناء قراءة علمية متماسكة.

فهو يقول :ولا يخفى على أحد أن تلك الحركة الإسلامية المعاصرة،على الرغم مما قد يبدو في داخلها من اختلافات لا تمس جوهرها وأصول منهجها،مدينة في بنيتها الفكرية وتصوراتها عن الله والكون والإنسان لشيخ الإسلام ابن "تيميةالحراني ، وهذا ما تعيه القيادات المؤسسة لهذه الحركة.

لذلك فقد شمر ساعد الجد في انتقاء كل النقاط التي يتوهم بها أن تساعده في القدح في شيخ الإسلام،الذي تشكل مؤلفاته الغزيرة مؤثرا كبيرا في تنوير وترسيخ الوعي والعقل الجمعي للمسلمين.

من هنا أراد المؤلف الغوص في الجذور التي أنتجت هذا الوعي، هل هي صحيحة أم العكس ، لهذا جاء الكتاب في أربعة أقسام:

الأول :يتحدث عن موقف "ابن تيمية "من الآخر

الثاني :يعالج قواعد منهج "ابن تيمية "في التوحيد، وكيف يفهم الصفات الإلهية

الثالث :مخصص للحديث عن القدر في فكر "ابن تيمي ة"

أما الرابع :فيعالج إشكالية :هل العقل مقدم على النقل؟ وهو قراءة في كتاب درء التعارض

ولو أنه مضى فعلًا في استكناه الجذور المعرفية التي أسهمت في تشكّل هذا الوعي، على نحوٍ تحليلي منضبط يُفضي إلى إضافة علمية معتبرة أو إضاءة تفسيرية ذات قيمة، لكان ذلك أجدى في ميزان البحث، وأقرب إلى مقتضيات النظر الأكاديمي الرصين. غير أنّ المتأمل في مسار معالجته يلحظ انزياحًا عن هذا المسلك، إذ تغلب عليه نزعة نقدية تتجاوز حدود التقويم العلمي إلى مساءلة الأصول والثوابت على نحوٍ إشكالي. ويكفي في التدليل على ذلك استحضار بعض المقتطفات الدالة من كتابه، كما يأتي:

:في اهداء الكتاب يقول المؤلف إلى الذين يحملون ما احمل من الهم والقلق من أجل نهضة هذه الأمة، إلى الذين تحررت عقولهم من قيود التقليد والتبعية،وقلوبهم من سطوة الوهم والخرافة، وضمائرهم من سلطان تقديس الاشخاص وافهام البشر، إلى الذين يعرفون للعقل موضعه وللانسانية كرامتها، و للاسلام معناه.

ثم يقول في مقدمة الكتاب :لا خلاف في ان المسلمين اليوم يعيشون أزمات متعددة،فكرية وحضارية وسياسية واجتماعية، وتنموية وتربوية وتعليمية، ازمات متعددة تتفاقم يوما بعد يوم، وهذه الازمات ما هي الا نتاج لفكر الامة السائد، لكن اعمق ما يكون عقل الأمة ويؤثر فيه بلا منازع هو الفكر الديني،والفكر الديني ليس هو الدين ،انه مجرد فهم للدين ،وهذا الفهم ما هو الا نتاج بشري بوسائل وادوات بشرية، واذا كان نتاجا بشريا فهو ليس فوق النقد، ولا ينبغي ان يكون فوق النقد، والبقاء للاصلح].6[

إنه لا انفصال بين الفكر والواقع، وإن واقعنا البائس إنما هو نتاج لفكر الأمة الذي يتحكم بها دون شعور منها .إنه الفكر اللاشعوري أو اللاشعور الفكري، الراسخ في أعماق الأفراد، المتجذر في قلوبهم، بحيث يتعاملون به مع الواقع على سجية، عفو الخاطر].7[

انك واجد أيها الأخ الكريم، إن شاء الله أني لم أدخر وسعًا في تقديم شيخ الإسلام كما هو، بحلوه ومرّه، بقسوته ولينه، بعقلايته وتهوره، بهجومه ودفاعه، بحلمه وغضبه بانسجامه وتناقضه، فما شيخ الإسلام الا انسان يخطئ ويصيب ويمشي ويتعثر شأنه شان غيره من المصلحين الكبار] .8[

ويقول :فيما يتعلق بهذا الطريق لو قابلنا واحد أو أكثر من الكفار :وقد علمنا الرسول عليه الصلاة والسلام :وإذا لقيتموهم في طريق فاضطروهم إلى أضيقه، فإذا لاقاكم اليهود والنصارى ولو كانوا ألفا وأنتم عشرة نشق هذا الجمع، ولا نفسح لهم الطريق بل نلجئهم إلى أضيقه، فنريهم العز بديننا لا بأنفسنا،لأننا نحن بشر وهم بشر ،حتى يتبين لهم أن دين الإسلام هو الظاهر وأن المتمسك به هو العزيز .وأتساءل هل سيفهم اليهود والنصارى هذه الرسالة التي يفكر فبها العلامة رحمه الله؟ أم سينظرون إليها على أنها نوع من سوء التهذيب والإيذاء والاستعداء ليس إلا؟].9[

وأيضًا فالعصر الذي عاش فيه "ابن تيمية"، هو ما يسميه بعض المؤرخين عصر الانحطاط، حيث التراجع الحضاري والسياسي والفكري، وغلبة التقليد وضعف الاجتهاد، والتقاليد البالية، والعادات غير الحميدة .كل هذا كان مما يميز العصر المملوكي الذي عاش فيه "ابن تيمية رحمه الله .وإذاً فكثير من أفكاره التي ربما يفاجأ بها القارئ هي نتاج الثقافة السائدة في ذلك " الوقت] ."].10[

وان كنت أتساءل عن الطريق الذي علم بها شيخ الإسلام رحمه الله أن النساء هن أعظم الناس إخبارًا بالفواحش، فإن هذا يحتاج إلى اطلاع شديد على ما يجري في مجالس النساء، وعلى إحصاء دقيق لكي يكون الكلام عن علم لا عن ظن، لكنني أقول :إن إطلاق هذا القول من شيخ الإسلام إنما هو نتاج الثقافة التي تربى عليها في عصره الذي هو عصر المماليك كما هو معلوم] ."].11[

إن الإشكال الجوهري في هذا الخطاب لا يكمن في كونه ناقدًا، بل في كونه يخلط على نحوٍ غير منضبط بين مستويين :مستوى النقد العلمي الذي يقتضي التفكيك الدقيق للمفاهيم

والبنى الحجاجية، ومستوى الخطاب التقييمي الذي ينزع إلى إصدار أحكام كلية ذات طابع إنشائي .ومن ثم فإن النتيجة النهائية تبدو وكأنها إعادة صياغة لموقفٍ أيديولوجيمسبق،ألبس قسرا ثوب التحليل الأكاديمي،من غير أن يرقى إلى مستوى المحاولة العلمية الجادة في مقاربة تراث بالغ التعقيد والاتساع بحجم تراث "ابن تيمية"؛ إذ غاب عنها استيعاب تعدديته الداخلية وامتداداته المعرفية الضخمة، وحل محل ذلك نزوع اختزالي يرد هذا البناء الفكري الهائل إلى صورة مسطحة، محكومة بأحكام سابقة على الفحص، وموجهة بنتائج مقررة قبل الشروع في النظروعليه، فإن القيمة الحقيقية لمثل هذا الطرح في سياق الدراسات الأكاديمية لا تكمن في . نتائجه بقدر ما تكمن في كونه مادةً كاشفة لطرائق اشتغال بعض الخطابات النقدية المعاصرة، بما تتيحه من فرصة لإعادة مساءلة أدوات النقد ذاتها، وحدود قدرتها على ملامسة موضوعها .دون الوقوع في اختزالٍ أو توجيهٍ مُسبق

وإذا أردنا النفاذ إلى البنية العميقة لخطاب السمهوري، فإننا لا نقف عند حدود الملاحظات المنهجية الجزئية، بل نواجه نمطًا من الاشتغال المعرفي يمكن وصفه بدقة بأنه خطاب نقدي مُلتبس التأسيس؛ إذ يتقاطع فيه ادعاء التفكيك مع إعادة إنتاج مركزية تأويلية مغلقة، ويجاور .فيه الاحتفاء بالعقل نزوعٌ خفي إلى توجيه نتائجه سلفًا

القسم الأول

التعريف بشيخ الإسلام "ابن تيمية"

" هو احمد تقيّ الدين أبو العبّاس بن الشيخ شهاب الدين ابي المحاسن عبد الحليم بن الشيخ مجد الدين ابي البركات عبد السلام بن ابي محمد عبد الله بن أبي القاسم الخضر بن محمد بن الخضر بن علي بن عبدالله وتعرف هذه الاسرة باسرة ابن تيمية. وُلِد في حرّان سنة ستمائة إحدى وستين للهجرة، وانتقل صغيرًا مع أسرته إلى دمشق بعد غزو التتار ". [12]

نشأ "ابن تيمية" داخل بنية علمية متماسكة، تمثل نموذجًا للأسرة السلفية الحنبلية التي احترفت العلم الشرعي ممارسةً وتعليمًا وتوارثًا، قوامُها الاشتغال بالحديث، والفقه، والأصول، والتفسير. نشأ في أسرة عُرفت بتمكّنها من علوم السلف، وتوارثت العلم جيلاً بعد جيل.

" ولد الشيخ في بيت ثقافة إسلامية سلفية، فإن جده كان محدثًا مشهورًا وكذلك كان أبوه، يصف ابن تيمية جده بقوله: (كان جدنا عجبًا في حفظ الأحاديث وسردها وحفظ مذاهب الناس بلا كلفة) ويصفه بأنه كان معدوم النظير في زمانه، رأسًا في الفقه وأصوله. أما والده فإنه أتقن العلوم وأفتى وصنف وصار شيخ البلد بعد أبيه.. وكان محققًا، كثير الفنون، وكان من أنجم الهدى، وإنما اختفى من نور القمر وضوء الشمس. ويشير الذهبي في هذا الوصف إلى كل من أبيه وابنه" . [13]

لقب تيمية

قال الإمام الذهبي رحمه الله: " حج جدُّ ابن تيمية، وله امرأة حامل، فلمَّا كان بتيماء - مدينة بين المدينة وتبوك - رأى طفلةً قد خرجت من خباء، فلما رجع إلى حران، وجد امرأتَه قد ولدت بِنْتًا، فلمَّا رآها قال: يا تيمية! يا تيمية! (يعني: أنها تشبه الطفلة التي رآها بتيماء) فلُقِّبَ بذلك. وقال ابن النجار رحمه الله: ذكر لنا أن جدَّه محمدًا، كانت أمُّه تُسمَّى تيمية، وكانت واعظةً، فنُسِب إليها، وعُرِف بها ".[14]

النشأة والتعليم والمسيرة العلمية

تتفق الروايات على أنّ "ابن تيمية" بدأ مسيرته العلمية في سنّ مبكرة، داخل محيط يعتني بضبط العلوم والاجتهاد فيها، وتمرين الناشئة على الحفظ والملازمة ومطالعة الكتب الأصلية. وقد بدا نبوغه وتفوقه واضحًا منذ طفولته، لما عُرف به من جدّ متواصل وحرص دؤوب على التحصيل، حتى تجاوز أقرانه.

" كان "ابن تيمية" منذ صغره مستغرق الأوقات في الجد والاجتهاد، وختم القرآن صغيرًا، ثم اشتغل بحفظ الحديث والفقه واللغة العربية، حتى برع في ذلك مع ملازمة مجالس الذِّكْر وسَماع الأحاديث والآثار، ولقد سمِعَ غير كتابٍ على غير شيخ من ذوي الرّوايات الصحيحة العالية، أمَّا دواوين الإسلام الكبار؛ كمسند أحمد، وصحيح البخاري ومسلم، وجامع الترمذي، وسنن أبي داود السجستاني، والنسائي، وابن ماجه، والدارقطني، فإنه رحمه الله سمِعَ كُلَّ واحدٍ منها عدة مرات، وأول كتاب حَفِظَه في الحديث الجَمْعُ بين الصحيحين للإمام الحميدي، وقَلَّ كتابٌ من فنون العلم إلا وقف عليه " .[15].

لم يكن شيخ الإسلام "ابن تيمية" عالمًا تقليديًا يكتفي بالحفظ والرواية المجردة، بل كان شخصية موسوعية من الطراز الرفيع، تجمع بين العمق العلمي والمقدرة على الاستيعاب الشامل. وقد مكّنته هذه الموسوعية من استيعاب مختلف علوم عصره، سواء الفقه، أو الحديث، أو التفسير، أو علوم الكلام، فضلاً عن الدراسات اللغوية والبلاغية، مما أهّله لأن يكون قدوة في الاجتهاد والتحليل العلمي. ولم يكتفِ بمجرد الاطلاع على المذاهب والآراء، بل كان يستحضرها عند الحاجة، ويقارنها، ويجابه المخالفين بحجج وأدلة راسخة، مستندًا إلى نصوص القرآن والسنة وأقوال العلماء الثقات، حتى صارت له مكانة علمية مرموقة لم يُدركها كثير من معاصريه.وكان لهذا التكوين الموسوعي أثره في كل كتبه، وهذا ما سنتعرض إليه لاحقا إن شاء الله تعالى في ثنايا هذه الدراسة.

" برع ابن تيمية في الرجال، وعلل الحديث وفقهه، وفي علوم الإسلام وعلم الكلام، وغير ذلك. وكان من بحور العلم والأذكياء المعدودين والزهاد الأفراد. وسارت بتصانيفه الركبان، لعلها ثلاثمائة مجلد" . [16]

لم يكتفي شيخ الإسلام "ابن تيمية" بالعلم النظري وحسب بل جعل من العبادة والذكر وسيلة للارتقاء الروحي والفكري في حياته اليومية. فقد كان اجتهاده في تحصيل العلم متوازناً متوازيا مع انضباطه الروحي وملازمته للذكر، بحيث أصبح الذكر جزءًا لا يتجزأ من يومه. ويؤكد

الإمام ابن القيم هذا المعنىبقوله: " قال لي شيخ الإسلام ابن تيمية: لا أترك الذكر إلا بنية إراحة نفسي؛ لأستعدَّ بتلك الراحة لذِكْرٍ آخَر " .[17]

" وكان من عادته لا يُكلِّمه أحدٌ بغير ضرورة بعد صلاة الفجر، فلا يزال في الذِّكْر يسمع نفسه، وربما يسمع ذكره مَنْ إلى جانبه مع كونه في خلال ذلك يُكثِر من تقليب بَصَرِه نحو السماء، هكذا دأْبُه حتى ترتفع الشمس، ويزول وقت النهي عن الصلاة ".[18]

ان الخصائص الأسلوبية والفكرية لا تمثل سمات متفرقة في نتاج "ابن تيمية" كما ترى الدراسة، بل تشكّل نسقًا معرفيًا متكاملًا يطبع مشروعه العلمي برمّته. فوضوح العبارة عنده ليس مجرد مهارة لغوية، بل نتيجة مباشرة لوضوح الرؤية المنهجية، ولاتصاله الدائم بالأصول الكبرى للمعرفة الشرعية، كما أن كثافة الاستشهاد بالنصوص والآثار لا تُفهم بوصفها تراكمًا نقليًا، وإنما باعتبارها إعادة بناء للوعي العلمي على أساس مرجعي أصيل، يجعل القارئ في تماس مباشر مع العقل السلفي في لحظته التأسيسية.

"وفي الحق ان ابن تيمية قد وقع قلبه وعقله تحت تأثير الكتاب والسنة وأقوال الصحابة وأقضيتهم وفتاويهم وكل ما أثر عنهم من آراء فهو يعيش في جوهم ويحلق في سمائهم ؛ فإذا نظر إلى الوجود وجد آراء تخالف ما كان عليه أولئك العلية السابقون ، وتخالف ما جاء به الرسول ، ليصدع في الناس بأمر ربه ، ويناديهم بإحياء السنة النبوية، واتباع الآثار السلفية".[19]

قوة حفظ "ابن تيمية"

تميزت نشأة شيخ الإسلام "ابن تيمية" منذ صغره بسمات فريدة في الذكاء وسرعة الحفظ، والإدراك والتحصيل العلمي، ما أهّله لأن يكون من أبرز علماء عصره. فقد جمع في شخصيته بين النبوغ العلمي والانضباط الدراسي والمثابرة على التعلم، وكان لذلك أثر كبير في مساره العلمي لاحقًا، حيث لم يقتصر تميزه على حفظ النصوص وحسب، بل شمل القدرة على استيعابها وفهم معانيها وتحليلها.

ويؤكد هذا الجانب من عبقريته المبكرة الفذة اقتباس شهير يرويه أحد علماء حلب عن لقائه بالصبي "أحمد بن تيمية"، حيث يقول: " سمِعْتُ في البلاد بصبيٍّ يُقال له: أحمد بن تيمية، وأنه سريع الحفظ، وقد جئْتُ قاصدًا لَعَلِّي أراه، فقال له خياط: هذه طريق كُتَّابه، وهو إلى الآن ما جاء، فاقعُد عندنا الساعة يجيء، يعبُر علينا ذاهبًا إلى الكُتَّاب، فجلس الشيخ الحلبي قليلًا، فمرَّ صبيان، فقال الخياط للشيخ الحلبي: هذا الصبيُّ الذي معه اللَّوْح الكبير هو أحمد بن تيمية، فناداه الشيخ، فجاء إليه فتناول الشيخ اللَّوْحَ فنظر فيه، ثم قال: يا ولدي، امسح هذا حتى أُملِي عليك شيئًا تكتُبُه، ففعل فأملى عليه من متون الأحاديث أحد عشر أو ثلاثة عشر حديثًا، وقال له: اقرأ هذا، فلم يَزِدْ على أن تأمَّلَه مرةً بعد كتابته إيَّاه، ثم دفعه إليه، وقال: أسمعه عليَّ، فقرأه عليه حفظًا، فقال له: يا ولدي، امسح هذا ففعل، فأَمْلَى عليه عدة أسانيد انتخبها، ثم قال: اقرأ هذا فنظر فيه كما فعل أول مرة، فقام الشيخ وهو يقول: إن عاش هذا الصبيُّ ليكونَنَّ له شأنٌ عظيم، فإن هذا لم يُرَ مثله ".[20]

قال جمال الدين السرمري أيضًا: " من أعجب ما سمِعْتُه عن ابن تيمية ما حدَّثني به بعضُ أصحابه أنه لَمَّا كان صبيًّا في بداية أمره، أراد والدُه أن يخرج بأولاده يومًا إلى البُستان على سبيل التنزُّه، فقال له: يا أحمد، تخرُجُ مع إخوتك تستريح فاعتذِر، فألحَّ عليه والدُه فامتنع أشدَّ الامتناع، فقال: أشتهي أن تعفيني من الخروج، فتركه وخرج بإخوته، فظلُّوا يومهم في البستان، ورجعوا آخر النهار، فقال: يا أحمد، أوحشت إخوتك اليوم، وتكدَّر عليهم بسبب غيبتك عنهم، فما هذا؟ فقال: يا أبي، إنني اليوم حفظتُ هذا الكتاب، لكتابٍ معه، فقال أبوه: حفظته، كالمنكر المتعجِّب مِن قوله، فقال له: استعرضه عليَّ فاستعرضه، فإذا به قد حفظه جميعَه، فأخذه وقَبَّله بين عينيه، وقال: يا بني، لا تُخبِر أحدًا بما قد فعلْتَ، خوفًا عليه من العين ".[21]

ويذكر ابن الوردي أنه بعد أن تعلم الخط والحساب وحفظ القرآن في المكتب، أقبل على الفقه والعربية وبرع في النحو، ثم أقبل على التفسير إقبالًا كليًّا حتى سبق فيه، وأحكم أصول الفقه؛ كل هذا وهو ابن بضع عشرة سنة. فانبهر الفضلاء من فرط ذكائه وسيلان ذهنه وقوة حافظته وإدراكه، ونشأ في تصوُّن تام وعفاف وتعبد، واقتصاد في الملبس والمأكل. وكان يحضر المحافل في صغره، فيناظر ويفحم الكبار ويأتي بما يتحيَّرون منه، وأفتى وله أقل من تسع عشرة سنة، وشرع في الجمع والتأليف. مات والده وله إحدى وعشرون سنة، وبعُد صيته في العالم فطبَّق ذكره الآفاق، وأخذ في تفسير القرآن أيام الجمع في المسجد من حفظه، لا يتوقف ولا يتلعثم. وكان للشيخ خبرة تامة بالرجال رواة الحديث، وجرحهم وتعديلهم وطبقاتهم، ومعرفة بفنون الحديث وبالعالي والنازل والصحيح والسقيم، مع حفظه لمتونه الذي انفرد به، وهو عجيب في استحضاره واستخراج الحجج منه، وإليه المنتهى في عزوه إلى الكتب الستة والمسند، بحيث يصدق عليه أن يقال إن كل حديث لا يعرفه ابن تيمية فليس بحديث، ولكن الإحاطة لله؛ غير أنه يغترف فيه من بحر، وغيره من الأئمة يغترفون من السواقي! [22]

مشائخه وتلاميذه

لقد تميّز شيخ الإسلام "ابن تيمية" بعقلية علمية مستقلة فذة، تأثر فيها بكبار العلماء في الفقه والحديث والتفسير، وأخذ عنهم معارفهم ومناهجهم ، كما ذكر "ابن كثير" في البداية والنهاية، فقد سمِعَ الحديث من ابن عبدالدائم، وابن أبي اليسر، والشيخ شمس الدين الحنبلي، والقاضي شمس الدين بن عطاء الحنفي، والشيخ جمال الدين بن الصيرفي، ومجد الدين بن عساكر، والشيخ جمال الدين البغدادي، والنجيب بن المقداد، وابن أبي الخير، وابن علان، وابن أبي بكر الهروي، والكمال عبدالرحيم، والفخر علي، وابن شيبان، والشرف بن القواس، وخلق كثير.

إلا أن "ابن تيمية" لم يكن مجرد ناقل لعلوم ومعارف السابقين أو جامع للعلوم، بل كان فكرًا مستقلاً يحلل ويمحص ويمزج بين المعارف، فينتج منها انتاجا فريدا من نوعه، يمتاز بالعمق والوضوح والمنهجية الصارمة، بحيث لا يشبه أحدًا ممن سبقه، ولا يُحاكي تقليديًا أيًا من مشايخه.

" اننا لا نستطيع أن نحصى الينابيع التي استقى منها ، ولا أنواع الغذاء العقلى الذى تغذى بها عقله ، فأنتج ما أنتج ، ووصل إلى ما وصل إليه وسواء أعلمنا على وجه اليقين ذلك أم لم نعلم ، فمن المؤكد أن المجموعة العلمية التي سجلها التاريخ لابن تيمية في سجل الخلود هي فريدة في بابها ، لم يكن في نهجه فيها تابعاً مقلداً أو حاكياً ، بل كان مستقل الفكر الذي لم يحاك أحداً سبقه

في كتابته ، وإن كان لكل ماسبق من آثار علمية دخل في تكوينه الفكرى والعلمى ، فهو وإن كان قد تغذى من علم السابقين ، قد أتى بأمر هو خلاصة ما انطبع في نفسه ، واستقام فى فكره ، كالجسم يتغذى من كل غذاء ، ثم يكون من ذلك مزيج فيه كل العناصر التي تغذى منها . ولكن له خواص تجعله ليس واحداً منها ، وليس على شاكلة أى واحد منها ، وكذلك كان ابن تيمية رضى الله عنه . وسنحاول أن نبين ذلك ما استطعنا إليه سبيلا". [23]

قال محمد بن عبدالهادي: "شيوخ ابن تيمية الذين سَمِعَ منهم أكثرُ من مائتي شيخ".[24]

من ناحية ثانية، يشكل تتبع علاقة "ابن تيمية" بتلاميذه أحد المفاتيح لفهم أثره العلمي والفكري والموسوعي، في المجتمع الإسلامي المعاصر لعصره وما تلاه. فقد تميز الإمام بكونه مرجعًا علميًا متكاملًا، قادرًا على الجمع بين العمق النظري والقدرة على نقل المعرفة بطريقة منهجية، وهو ما انعكس في مستوى تلاميذه العلمي وأثرهم في نشر معارفه الثرة.

كما لم يقتصر تأثير شيخ الإسلام على تلقين العلوم الشرعية فحسب، بل إمتد إلى تشكيل أجيال من العلماء القادرين على الاستنتاج المستقل والتدبر للنصوص، مما يبرز دور "ابن تيمية" كمؤسس لمسار علمي له خصوصيته ومتانته الفكرية.

وكان للإمام "ابن تيمية" الكثير من التلاميذ، ومن أشهرهم:

(1) محمد بن أحمد بن عبدالهادي

(2) ابن قيم الجوزية

(3) محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي

(4) محمد بن مفلح الحنبلي

(5) ابن كثير

(6) عمر بن علي البزار

(7) أحمد بن حسن بن قدامة

(8) عمر بن مظفر بن الوردي

(9) محمد بن سيد الناس

(10) صلاح الدين الصفدي، وغيرهم كثير. [25]

سماحة "ابن تيمية" مع مخالفيه

يتبيّن من خلال تتبّع سيرة شيخ الإسلام "ابن تيمية" أن حضوره العلمي لم يكن منحصِرًا في دائرة المناظرات أو البحث النظري المجرّد، بل كان متكئًا على منظومة أخلاقية وروحية راسخة شكّلت الإطار الناظم لشخصيته العلمية والعملية، فقد اقترنت سعة علمه بصفاء نفس،

وطمأنينة قلب، مكّنته من تحويل المحن والابتلاءات إلى مساحات للترقي الروحي، لا إلى دوافع للقلق أو الاضطراب، وهو ما يعكس مستوىً عميقًا من اليقين وحضور المعنى الإيماني في حياته.

ويُستدل على ذلك بما امتلكه من قوة الصلة بالله، ودوام الذكر، وانخراطٍ واعٍ في العمل والعلم، الأمر الذي جعله يتعامل مع الدنيا بمنظور الزاهد العارف، ولم تكن هذه المعاني مجرّد تصوّرات نظرية، بل تجلّت في سلوكه العملي ومواقفه في أوقات الشدّة والرخاء على السواء. ويبرز هذا البعد بوضوح في شهادة تلميذه الإمام ابن القيم، الذي نقل جملةً من المواقف الدالّة على عمق التجربة الروحية لشيخه، وعلى ما اتّسم به من ثبات أخلاقي وصلابة نفسية، بما يعزّز صورة "ابن تيمية" بوصفه نموذجًا للعالم الذي امتزج فيه البناء العلمي بالسمو الخُلقي والرسوخ الإيماني.

" قال الإمام المحقق ابن القيم روح الله روحه في كتابه (الكلم الطيب والعمل الصالح) سمعت شيخ الإسلام "ابن تيمية" قدس الله روحه يقول : إن في الدنيا جنة من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة ، يعني الكتب . قال وقال لي مرة : ما يصنع أعدائي بي أنا جنتي وبستاني في صدري أين رحت فهي معي لا تفارقني ، أنا حبسي خلوة ، وقتلي شهادة ، وإخراجي من بلدي سياحة" .[26]

تفيد هذه العبارات بوجود بنيةٍ روحية متماسكة تقوم على اليقين والاتزان النفسي، وتكشف عن تصور معرفي يُدرج العلم ضمن منظومة التعبّد، ويُعيد تعريف العزلة بوصفها ممارسة تأملية واعية، كما يُعيد تأويل الشدائد باعتبارها سياقًا لاختبار المواقف وترسيخ المبادئ لا عاملًا للاضطراب أو التزعزع. ويُستفاد من ذلك أن التجربة الروحية لدى "ابن تيمية" لم تكن حالة وجدانية عابرة، بل إطارًا ناظمًا للسلوك والموقف والاستجابة للواقع. وتُمثّل هذه المعطيات مدخلًا أساسًا لتحليل البنية القيمية والأخلاقية التي تأسست عليها مواقف "ابن تيمية" العلمية والدعوية، إذ تُفسّر قدرته على الحفاظ على الاتساق بين القول والفعل، وعلى الجمع بين الصرامة المنهجية والاستقرار النفسي، ضمن سياقٍ تاريخي اتّسم بكثافة الصراع وضغط الابتلاء.

وفي السياق القيمي ذاته، يقرّر "ابن تيمية": " أنا في سعة صدر لمن يُخالفني، فإنه وإن تعدَّى حدودَ الله بتكفير أو تفسيق أو افتراء أو عصبية جاهلية، فأنا لا أتعدَّى حُدُودَ الله فيه؛ بل أضبط ما أقوله وأفعله، وأزنه بميزان العدل، وأجعله مؤتمًّا بالكتاب الذي أنزله الله، وجعلَه هُدًى للناس، حاكمًا فيما اختلفوا فيه؛ قال الله تعالى: ﴿ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ ﴾ [البقرة: 213]، وقال تعالى: ﴿ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ ﴾ [النساء: 59]، وقال تعالى: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ﴾ [الحديد: 25] ".[27]

واتّسمت شخصية "ابن تيمية" بخصلة العفو عمّن خاصموه أو أساؤوا إليه، حيث لم يقف موقف الامتناع عن المقابلة بالمثل فحسب، بل تجاوز ذلك إلى إظهار الدعاء لهم وإرادة الخير لهم. ويُشير هذا السلوك إلى ترسّخ مَلَكةٍ أخلاقية قائمة على ضبط النفس وتجاوز نوازع الانتقام، كما

يعكس مستوىً متقدّمًا من الاتزان الروحي الذي أسهم في توجيه مواقفه العملية وتعاملاته مع مخالفيه.

كتب الإمام" ابن تيمية" رسالةً إلى تلاميذه وأحبابه، يتحدَّث فيها عن خصومه، قال فيها: " أنا أُحبُّ لهم أن ينالوا من اللذَّة والسرور والنعيم ما تَقَرُّ به أعينُهم، وأن يفتح لهم من معرفة الله وطاعته والجهاد في سبيله ما يصِلُون به إلى أعلى الدرجات ".[28]

وقال رحمه الله:" لا أُحِبُّ أن يُنتصَر من أحدٍ بسبب كذبه عليَّ أو ظُلْمه وعُدوانه؛ فإني قد أحللْتُ كلَّ مسلم، وأنا أحب الخير لكل المسلمين، وأريد لكل مؤمن من الخير ما أحِبُّه لنفسي، والذين كذبوا وظلموا فهم في حِلٍّ من جهتي ".[29]

" ويتجلّى عفوه وسماحته مع مخالفيه في أبهى صورها في موقفه مع قاضي المالكية ابن مخلوف، الذي كان بينهما حدّة وعداء ظاهر. ومع ذلك، يقف ابن تيمية موقفاً يندر وقوعه في تاريخ الخصومات العلمية، وهو موقف ومبدأ ثابت من ثوابت شيخ الإسلام، يقول: وابن مخلوف لو عمل مهما عمل، والله ما أقدر على خير إلا وأعمله معه، ولا أعينُ عليه عدوَّه قطُّ، ولا حول ولا قوة إلا بالله، هذه نيَّتي وعزمي، مع علمي بجميع الأمور، فإني أعلم أن الشيطان ينزغ بين المؤمنين، ولن أكون عونًا للشيطان على إخواني المسلمين ".[30]

" قال الإمام ابن القيم:جئتُ يومًا مُبشِّرًا لابن تيمية بموت أكبر أعدائه، وأشدِّهم عَداوةً وأذًى له؛ فنهرني وتنكَّر لي واسترجع، ثم قام من فوره إلى بيت أهله فعزَّاهم، وقال: إني لكم مكانه، ولا يكون لكم أمرٌ تحتاجون فيه إلى مساعدة إلا وساعدتُكم فيه؛ فسُرُّوا به ودعوا له، وعظَّمُوا هذه الحال منه، فرحمه الله ورضي عنه ".[31]

" وقال قاضي المالكية ابن مخلوف: ما رأينا مثل ابن تيمية حرَّضْنا عليه فلم نقدِرْ عليه، وقدر علينا فصفَحَ عنَّا، وحاجَجَ عنَّا ".[32]

مكانة "ابن تيمية" العلمية والدينية

يُعدّ شيخ الإسلام "ابن تيمية" من الأعلام الذين جمعوا بين عمق المعرفة وسعة الاطلاع ودقّة المعالجة المنهجية، وهو ما يتجلّى في مسيرته العلمية المبكرة القائمة على الاتصال الوثيق بمصادر العلم والمواظبة المنهجية على دراسة النصوص واستيعابها. وقد أفضى هذا التكوين إلى بناء مشروعٍ علمي متماسك اتّسم بالشمول، والقدرة على التحليل والمقارنة، وترسيخ النظر النقدي. وتعكس شهادات معاصريه، وفي مقدّمتهم الحافظ ابن كثير، مكانته العلمية المرموقة، وتكشف عن الأسس المعرفية التي شكّلت منهجه الفقهي والحديثي والعقدي.

" قرأ "ابن تيمية" رحمه الله بنفسه الكثيرَ من الكتب، وطَلَبَ الحديثَ، ولازم السَّماعَ بنفسه مدة سنين، ثم اشتغل بالعلوم، وكان ذكيًّا، كثيرَ المحفوظ، فصار إمامًا في التفسير وما يتعلَّق به، عارفًا بالفقه واختلاف العلماء، والأصلين - القرآن والسنة - والنحو واللغة، وغير ذلك من العلوم النقليَّة والعقلية، وما تكلَّم معه فاضلٌ في فنٍّ من الفنون العلمية إلا ظَنَّ أن ذلك الفنَّ فنُّه، ورآه عارفًا به مُتْقِنًا له، وأما الحديث فكان حافِظًا له مَتْنًا وإسنادًا، مُميِّزًا بين صحيحه وسقيمه،

عارفًا برجاله مُتضلِّعًا من ذلك، وله تصانيفُ كثيرةٌ، وتعاليقُ مفيدةٌ في الأصول والفروع ".[33]

منزلة "ابن تيمية" العلمية

يتجلّى المسار العلمي لشيخ الإسلام "ابن تيمية" في مكانته الراسخة بين العلماء، بوصفها ثمرة تكوينٍ علمي مبكّر وجهدٍ تعليمي متواصل، وقدرةٍ منهجية على توظيف العلوم الشرعية في التفسير والفقه. وقد تأسّست هذه المكانة على حضورٍ علمي منتظم وممارسةٍ تعليمية مباشرة، كان من أبرز مظاهرها مجالسه في تفسير القرآن الكريم بالجامع الأموي، التي عكست سعة علمه وعمق تأصيله وكثافة الإقبال عليه، كما تشهد بذلك الروايات التاريخية التي وثّقت اتساع أثره واستمرار عطائه العلمي.

" جلس ابن تيمية بالجامع الأموي بعد صلاة الجُمعة على منبر قد هُيِّئ له لتفسير القرآن العزيز، فابتدأ من أوَّله في تفسيره، وكان يجتمع عنده الخَلْقُ الكثير، من كثرة ما كان يُورِدُ من العلوم المتنوّعة المحرَّرة مع الديانة والزهادة والعبادة، سارت بذِكْرِه الرُّكْبان في سائر الأقاليم والبلدان، واستمرَّ على ذلك مدة سنين متطاولة ".[34]

" وفي الجملة إن ذلك الفتى ربى نفسه تربية عالية ، فتعلم العلوم التي كانت رائجة في عصره ، ولم يترك باباً من الأبواب إلا أتقنه ، ولقد قال فيه أحد معاصريه : « قد ألان الله له العلوم ، كما ألان لداوود الحديد ، كان إذا سئل عن فن من العلم ظن الرائى والسامع أنه لا يعرف غير ذلك الفن ، وحكم أن أحداً لا يعرفه مثله ، وكان الفقهاء من سائر الطوائف إذا جلسوا معه استفادوا في مذاهبهم منه مالم يكونوا عرفوه قبل ذلك ، ولا يعرف أنه ناظر أحد فانقطع منه، ولا تكلم في علم من العلوم ، سواء أكان من علوم الشرع أم من غيرها . إلا فاق فيه أهله والمنسوبين إليه ، وكان له اليد الطولى في حسن التصنيف . . هذه ثمرة الدراسة الواسعة المدى التي تلقاها ، وعالجها في نشأته وشبابه ، حتى صار له شأنه ، وشغل عصره والأجيال ، وجدد الإسلام ، وأعاده قشيباً كما بدأ غضاً ، وأزال عنه غبار القرون الذى تكاثف عليه ، حتى حال دون إدراك حقيقته ومعرفة غايته ".[35]

وفي الجملة، خلّف "ابن تيمية" تراثًا علميًا بالغ الضخامة، تمثّل في مؤلفات كثيرة ومتنوعة، اتفق المحققون على أن عددها يربو على ثلاثمائة مصنَّف، بينما ذهب بعض المترجمين كأبي العماد الحنبلي إلى تقديرها بنحو خمسمائة كتاب. وعلى اختلاف هذه التقديرات، فإن الثابت تاريخيًا أن إنتاجه العلمي يُعد من أوسع ما خلّفه عالم واحد في عصره، بما يعكس غزارة عطائه، وتعدّد اهتماماته، وعمق حضوره في ميادين المعرفة الشرعية والفكرية.

أقوال العلماء في "ابن تيمية"

تعد أقوال العلماء المعاصرين لشيخ الإسلام "ابن تيمية" من أهم المصادر التوثيقية لفهم مكانته العلمية وتقدير حضوره في البيئة العلمية لعصره، إذ تعبّر هذه الشهادات عن تقييمٍ مباشر لكفاءته المعرفية، وسعة اطّلاعه، وقدرته على استيعاب العلوم الشرعية وتوظيفها ضمن نسقٍ منهجي

متكامل. كما تكشف عن طبيعة أثره العلمي، وما أثاره من تفاعلات علمية وفكرية عكست عمق حضوره وقوة تأثيره.

" قال الإمام الذهبي: شيخنا الإمام تقي الدين بن تيمية شيخ الإسلام، فرْد الزمان، بحر العلوم، تقي الدين، قرأ القرآن والفقه، وناظَرَ واستدلَّ، وهو دون البلوغ، برع في العلم والتفسير، وأفتى ودرَّس وله نحو العشرين سنة، وصنَّف التصانيف، وصار من أكابر العلماء في حياة شيوخه، وله المصنَّفات الكِبار التي سارت بها الركبانُ، ولعَلَّ تصانيفَه في هذا الوقت تكون أربعة آلاف كرَّاس وأكثر، وفسَّرَ كتابَ الله تعالى مدةَ سنين من صدره في أيام الجمع، وكان يتوقَّد ذكاءً، وسماعاتُه من الحديث كثيرةٌ، وشيوخُه أكثرُ من مائتي شيخٍ، ومعرفتُه بالتفسير إليها المنتهى، وحِفْظُه للحديث ورجاله وصحَّته وسقمه فما يُلحَق فيه، وأما نقلُه للفقه ومذاهب الصحابة والتابعين فضلًا عن المذاهب الأربعة، فليس له فيه نظيرٌ، وأما معرفتُه بالمِلَلِ والنِّحَل والأصول والكلام، فلا أعلم له فيها نظيرًا، ويدري جملةً صالحةً من اللغة، وعربيتُه قويةٌ جدًّا، ومعرفتُه بالتاريخ والسير فعجب عجيب، وأما شجاعتُه وجهادُه وإقدامُه، فأمرٌ يتجاوز الوصْفَ، ويفوق النَّعْتَ، وهو أحد الأجواد الأسخياء الذين يُضْرَبُ بهم المثلُ، وفيه زُهْدٌ وقناعةٌ باليسير في المأكل والمشرب ".[36]

وفي هذا الإطار، يبرز توصيف القاضي ابن دقيق العيد، الذي يُشير إلى إحاطة "ابن تيمية" بالعلوم وتمكّنه منها:" لما اجتمعت بابن تيمية رأيت رجلًا كُلُّ العلوم بين عينيه، يأخُذ ما يريد ويَدَع ".[37]

وقال محمد بن عبدالبر السبكي:" والله ما يبغض ابن تيمية إلا جاهلٌ أو صاحبُ هوًى؛ فالجاهلُ لا يدري ما يقول، وصاحبُ الهوى يصُدُّه هواه عن الحقِّ بعد معرفته به".[38]

وقال أبو الحجاج المزي: "ما رأيتُ مثل ابن تيمية، ولا رأى هو مثل نفسه، وما رأيتُ أحدًا أعلمَ بكتاب الله وسُنَّة رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا أتبع لهما منه".[39]

ان إدراك الخلفية العلمية والفكرية لشيخ الإسلام كما ترى الدراسة، يمهّد لفهم أعمق لبنية كتابه النفيس اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم ، خاصة فيما يتعلق برؤيته للهوية الإسلامية وقاعدة المخالفة، ومن ثمّ يجيء الإطار النظري التالي لتأسيس المفاهيم والمداخل التي ستنعقد عليها القراءة التحليلية لنص الكتاب.

الإطار النظري للدراسة التحليلية .2بين هداية الصراط المستقيم وغواية أهل الجحيم

تمهيد

يعد كتاب "ابن تيمية" نموذجًا فريدًا بديعا في الفكر الإسلامي، يجمع بين العمق المعرفي، والانضباط المنهجي، والقدرة على توصيل الأفكار بأسلوب واضح ودقيق، ويستدعي النقول النصية في انسجام وانضباط ليميز الحق وأهله عن الباطل وأهله، وقد جاء في كلمة د. عبد الله بن عبد المحسن التركي، وزير الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد:

إن من أعظم مقاصد الدين وأصوله، تمييز الحق وأهله عن الباطل وأهله، وبيان سبيل الهدى والسنة، والدعوة إليه، وكشف سبل الضلالة والبدعة، والتحذير منها، وقد اشتملت نصوص القرآن والسنة، على كثير من القواعد والأحكام التي تبين هذا الأصل العظيم والمقصد الجليل.

ومن ذلك، أن قواعد الشرع ونصوصه اقتضت وجوب مخالفة المسلمين للكافرين، في عقائدهم وعباداتهم وأعيادهم وشرائعهم، وأخلاقهم الفاسدة، وكل ما هو من خصائصهم وسماتهم التي جانبوا فيها الحق والفضيلة.

وقد عني سلفنا الصالح رحمهم الله، ببيان هذا الأمر، وكان من أبرز من صنف فيه، شيخ الإسلام أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية المتوفى سنة ٧٢٨هـ رحمه الله. وذلك في كثير من مصنفاته، لاسيما كتابه الشهير: اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم.

وقد عالج هذا الكتاب مسائل كثيرة تهم المسلمين اليوم، كما كان الحال في زمانه. ومن جملة هذه المسائل، بيان أن الأدلة القطعية من الكتاب والسنة والإجماع، توافرت على الأمر بمخالفة غير المسلمين، والنهي عن موافقتهم، وأن في مخالفتهم مصالح ظاهرة، كما أن في موافقتهم مفاسد ظاهرة كذلك، وأن النصوص وآثار السلف بينت أصناف الذين أمرنا بمخالفتهم، ونهينا عن التشبه بهم، كأهل الكتاب والمشركين والمنافقين وأهل الجاهلية، والأعراب الجفاة الذين لم يتفقهوا في الدين، والأعاجم من الفرس والروم، الذين لم يدخلوا الإسلام، ولم يلتزموا شرائعه، وأهل الفسق والفجور والفساد ونحوهم؛ لأن هؤلاء كلهم في سبيل الضلالة والغواية.

وقد ارتأينا في هذه الدراسة أن نُقسّم البحث إلى قسمين رئيسيين:

القسم الأول: السيرة العلمية والشخصية لابن تيمية، حيث نعرض نشأته، تلقيه للعلوم، ومكانته بين علماء عصره.

القسم الثاني: ملاحظاتنا التحليلية في فكر "ابن تيمية"، في كتاب اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم، مع إبراز أسلوب المؤلف، منهجيته، وقيمة الكتاب العلمية والعملية.

القسم الثاني: ملاحظات تحليلية في فكر "ابن تيمية"، في كتاب اقتضاء الصراط المستقيم ومخالفة أصحاب الجحيم

مقدمة تمهيدية للقسم التحليلي للكتاب

يعتبر كتاب اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم لشيخ الإسلام "ابن تيمية" من أبرز المؤلفات التي تعكس قدرة المؤلف على الجمع بين العمق المعرفي والدقة المنهجية في تناول المسائل العقدية والفقهية والأخلاقية. فالكتاب لا يكتفي بعرض وتحديد النصوص الشرعية فقط، بل يقوم على تحليلها ومقارنتها وبيان امتدادها عبر أقوال السلف والفقهاء والعلماء، ما يجعل منه مرجعًا متكاملًا لكل دارس يسعى لفهم المنهج الإسلامي في ضوء النصوص الشرعية ومبادئ العقيدة الصحيحة.

ويظهر من خلال دراسة أسلوب "ابن تيمية" أن الكتاب يجمع بين الموسوعية والاستقصاء الدقيق، والتنظيم الفكري الرفيع، ما يتيح للقارئ تتبع الأفكار بسهولة ويسر، ويساعد على الوصول إلى فهم شامل للموضوع الرئيسي، كما أن أسلوب المؤلف رحمه الله، يمزج بين الفصاحة والوضوح، والإيجاز والعمق المعرفي، مما يخلق نوعًا من التوازن بين جمال البيان وقوة الحجة.

ومن خلال قراءة الكتاب، تتضح المعالم الرئيسة والمحددات المعرفية التي تُشكل الهيكل المعرفي والفكري للكتاب، وتبرز الملكة العلمية المتفرّدة التي يتميز بها "ابن تيمية "، ويمكن تحليل الكتاب من عدة محاور أساسية تعكس منهجه العلمي، ومهاراته الفكرية، كما يلي:

_1تحليل الكتاب من حيث بنائه الحجاجي ومنهجه التعبيري: الإيجاز المكثف وعمق الدلالة في خطاب "ابن تيمية"

يمثّل الأسلوب البياني لشيخ الإسلام "ابن تيمية" إحدى السمات والصفات الأكثر حضورًا في نتاجه العلمي ومنهجه الفكري، إذ تتجلى فيه قدرة استثنائية على الجمع بين الإيجاز البليغ، ووضوح الدلالة ودقة التركيب.

وعند تحليل بنيته الخطابية يلاحظ أنّ عباراته تأتي محكمة البناء، مقتصدة في ألفاظها، وغنية في معانيها، بحيث تؤدي الجملة القصيرة عنده وظيفة فقرة كاملة عند غيره من الكتّاب، ولا يقتصر هذا النمط الأسلوبي على كونه مجرد سمة لغوية، بل هو انعكاس مباشر لصفاء ذهنه، وترتيب أفكاره، وإحكام تصوراته للمسائل قبل التعبير عنها. ولنأخذ على ذلك مثالين:

_1 في فصل حال الناس قبل الإسلام قال "ابن تيمية": " اعلم أن الله سبحانه وتعالى بعث محمداً ﷺ إلى الخلق على فترة من الرسل، وقد مقت أهل الأرض؛ عربهم وعجمهم، إلّا بقايا من أهل الكتاب ماتوا أو أكثرهم قبيل مبعثه.

والناس إذ ذاك أحد رجلين: إمّا كتابي متمسِّك معتصم بكتابٍ: وإمّا مبدل، وإمّا مبدل منسوخ ودينٍ دارسٍ، بعضه مجهول، وبعضه متروك، وإمّا أمّيّ من عربيٍّ وعجميٍّ، مقبلٌ على عبادة ما استحسنه، وظنّ أنّه ينفعه: من نجمٍ، أو وثنٍ، أو قبرٍ، أو تمثال، أو غير ذلك".[40]

يقدّم" ابن تيمية" في معرض حديثه عن حال البشر قبل البعثة النبوية نموذجًا لـ"فصاحة الإيجاز" التي تجمع بين كثافة الدلالة، ودقة التعبير. فقد استطاع في عبارات موجزة ومحكمة، أن يرسم

صورةً شاملة لطبيعة الانحراف العقدي والأخلاقي الذي ساد الجاهلية، مستندًا في ذلك إلى أصول البيان القرآني والهدي النبوي، وهما الرافدان اللذان صاغا ملكته اللغوية، ومنهجه التحليلي الرصين.

وقد تجلّت استفادته من السُّنّة النبوية بوضوح، في توظيفه معاني الحديث الشريف الوارد في بيان الفطرة الإنسانية وانحراف الأمم عنها:" ألا إنَّ رَبّي أمرني أنْ أُعَلِّمَكُمْ ما جَهِلْتُمْ، ممَّا علَّمَني يوْمِي هذا، كُلُّ مالٍ نَحَلْتُهُ عَبْدًا حلالٌ، وإنّي خَلَقْتُ عبادي حُنَفاءَ كُلَّهم، وإنَّهُم أتتْهُمُ الشياطينُ فاجْتَالَتْهُمْ عن دينِهِمْ، وحَرَّمَتْ عليهم ما أحْلَلْتُ لهمْ، وأمرَتْهُمْ أنْ يُشْركُوا بِي ما لَمْ أُنزلْ بهِ سُلْطَانًا، وإنَّ اللهَ نظر إلى أهْلِ الْأَرْضِ، فمقَتَهُمْ عَرَبَهُمْ وعَجَمَهُمْ، إلَّا بقَايَا من أهْلِ الْكِتَابِ".[41]، وقول الله تعالى: ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ الرُّسُلِ أَن تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِن بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ ۖ فَقَدْ جَاءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ ۗ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [المائدة: 19].

والغرض أنه كان يصوغ خطابه العلمي مستندًا إلى نصوص الكتاب والسنة، مستلهمًا منهما مادته الحجاجية ومبانيه الاستدلالية، لذا جاء بصورته فصيحا بليغا جامعا، كما ان قدرته على صياغة هذا المعنى بلغة تجمع بين الاقتصاد اللفظي والثراء الدلالي تمثل إحدى أبرز سمات منهجه؛ فهي تكشف عن تَملُّك عميق لأدوات البيان الشرعي، وعن حسّ علمي يوازن بين الاستشهاد النصي والتحليل الاستنباطي، بما يجعل عباراته على قِصَرها حاملة لطبقات متعددة من الدلالة، ومتناغمة مع مقصده الكلّي في تقرير أصول الهداية ومقدمات الانحراف، وإطارًا لفهم المفاصلة الحاسمة بين التوحيد الخالص وما راكمته الجاهليات المتعاقبة من صور التحريف العقدي والتشويه الشرعي.

_2قال شيخ الإسلام "ابن تيمية":" "وكلما كان القلب أتم حياة، واعرف بالإسلام _الذي هو الإسلام، لست أعني مجرد التوسم به ظاهرا أو باطنا بمجرد الاعتقادات، من حيث الجملة_كان إحساسه بمفارقة اليهود والنصارى باطنا وظاهرا أتم، وبعده عن أخلاقهم الموجودة في بعض المسلمين أشد". [42]

يتجلّى في قول شيخ الإسلام "ابن تيمية":

قدرة فائقة على الجمع بين الإيجاز والعمق المعرفي، إذ لا يحتاج النص إلى شرح مطوّل ليبيّن ويوضح العلاقة بين الالتزام القلبي بالإسلام، ووعي الفارق الأخلاقي والسلوكي بين المسلم وغير المسلم. ففي هذه العبارة.

1. الإيجاز المكثف: استخدم" ابن تيمية" جملًا محدودة، مركزة، لكنها محمّلة بمعان اكثر شمولا. كل كلمة كانت تختصر فكرة ومعنى كبير، بحيث يمكن للقارئ إدراك البُعد النفسي والخلقي والروحي في زمن وجيز.

2. العمق الفكري: النص يجمع بين الحياة القلبية للمسلم، والفهم الحقيقي للإسلام، والسلوك الأخلاقي، مع الإشارة إلى الفرق بين مجرد الاعتقاد والشعور الفعلي والحقيقي بالهوية الدينية.

3. الإرشاد العملي والفكري: هذا الأسلوب يعكس مبدأ "ابن تيمية" في التعليم والنصح: أن العلم ليس مجرد نقل نصوص، بل توجيه القلوب اولا ثم العمل بالنصوص، وتعميق فهم الدين في كل بعده.

ومن خلال هذه الخصائص التي ذكرنا، تحوّل نص "ابن تيمية" إلى نموذج فريد في البيان العلمي، يجمع بين جهد العالم، ودقّة المحقق، فلا يثقل النص بزوائد، ولا يفرّغه من مضمونه، ولا يسترسل في تفاصيل لا تخدم المعنى، ولا يحمّل القارئ عبء عبارات متشابكة بل يقدّم للقارئ علمًا واضحًا، مقصودًا،سهلا، محكم البناء، سريع النفاذ إلى الفهم، وفي هذين المثالين اللذين ذكرتهم الدراسة كفاية.

_2المنهج الاستقصائي الموسوعي في بناء الأصول الشرعية عند "ابن تيمية"

يُعدّ المنهج الاستقصائي والموسوعي أحد أبرز السمات والصفات المنهجية التي تميز مؤلفات شيخ الإسلام "ابن تيمية" ولا يبدو ذلك وصفًا عرضيًا في مؤلفاته وكتبه مثل كتاب اقتضاء الصراط المستقيم موضع الدراسة، بل جوهر وحقيقة البنية المعرفية للكتاب، وهو الذي جعل هذا المصنَّف النفيس مرجعًا مركزيًا في دراسة الهوية الإسلامية، ومسائل التشبه، وعلاقتها بالأصل العقدي والسلوكي للمسلم، فالكتاب لا يقوم على عرض القضايا عرضًا مباشرًا فحسب، بل يعتمد على بناء شبكة معرفية محكمة تتداخل فيها النصوص الشرعية، وأقوال السلف، والتاريخ، واللغة، والفقه، وأصوله، والعقيدة.

يتأسّس التصوّر الذي قدّمه "ابن تيمية" لمسألة التشبّه ومخالفة اصحاب الجحيم، على جملة من الأصول الشرعية المتداخلة، في مقدّمتها نصوص الكتاب والسنة، مقرونةً بفهم السلف الصالح باعتباره الإطار التفسيري الضابط لدلالات النصوص ومقاصدها. ويظهر هذا المنهج من الصفحات الأولى للكتاب؛ إذ يحرص المؤلف على تثبيت الأساس النصّي للمسألة قبل الخوض في تفريعاتها، فيستفتح بعرض الآيات القرآنية الدالّة على وجوب المخالفة والنهي عن التشبّه، ثم يعمد إلى جمع الأحاديث النبوية ذات الصلة وتحليل دلالاتها، مع العناية بعلل الأحكام ومقاصدها.

ويتلو ذلك استحضار واسع لأقوال الصحابة والتابعين وأئمة السلف، بوصفها امتدادًا عمليًا لفهم النص وتنزيله، وضابطًا يحول دون الانفلات في التأويل أو التوسّع غير المنضبط في الاستنباط. ومن خلال هذا المسار الاستقرائي المتدرّج، يتبيّن أن "ابن تيمية" لا يعالج مسألة التشبّه وغواية أهل الجحيم، بوصفها حكمًا جزئيًا معزولًا، وإنما يدرجها ضمن منظومة كلية تهدف إلى صيانة العقيدة، وحفظ الهوية، ومنع تسلّل المعاني العقدية الدخيلة عبر المظاهر والسلوكيات. وبذلك تتكامل عنده الأصول النقلية مع القواعد المقاصدية، ليشكّل مجموعها بنية منهجية متماسكة.

ويظهر هذا المنهج واضحًا من اول صفحات الكتاب، حيث يضع المؤلف الأساس النصّي للمسألة، ثم يشرع في استقصاء الآيات والأحاديث ذات الصلة، ويتبع ذلك باستحضار أقوال الصحابة والتابعين والأئمة. ولتفسير ذلك بصورة عملية، يمكن الإشارة إلى مثالين:

_1قال شيخ الإسلام "ابن تيمية": " كما كان النبي صلى الله عليه وسلّم يكره مشابهة أهل الكتابين في هذه الآصار والاغلال وزجر أصحابه عن التبتل وقال:" لا رهبانية في الإسلام وأمر بالسحور، ونهى عن المواصلة، وقال فيما يعيب اهل الكتابين ويحذر موافقتهم: "فتلك بقاياهم في الصوامع"، وهذا باب واسع جدا. وقال سبحانه:(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ) .

وقال سبحانه:(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ) . يعيب بذلك المنافقين الذين تولوا اليهود... إلى قوله:(لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ) إلى قوله:(أُولَٰئِكَ حِزْبُ اللَّهِ).

وقال تعالى:(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوا وَّنَصَرُوا أُولَٰئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ) إلى قوله:(وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ). إلى قوله:(وَالَّذِينَ آمَنُوا مِن بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَٰئِكَ مِنكُمْ...) ".[43]

ويلاحظ في هذا المثال استدعاء شيخ الإسلام لكل الآيات القرآنية التي تدخل في الموضوع وهذا في حد ذاته مقدرة ذهنية لا يستطيعها إلا من وفقه وهداه الله.

عن حذيفة بن اليمان قال: قال رسول الله ﷺ " :لا تشربوا في آنية الذهب والفضة، ولا " _2 .تأكلوا في صحافها، فإنّها لهم في الدنيا ولكم في الآخرة" متفق عليه

وعن جبير بن نُفير، عن عبد الله بن عمرو قال: "رأى رسول الله ﷺ عليّ ثوبين مُعصفَرين، .فقال": إنّ هذه ثياب الكفار، فلا تلبسها" رواه مسلم

علّل النهي عن لبسها بأنها: من ثياب الكفار، وسواء أراد أنها مما يستحله الكفار، بأنهم .يستمتعون بمخالفتهم في الدنيا، أو مما يعتاده الكفار لذلك

كما أنه في الحديث قال: إنهم يستمتعون بآنية الذهب والفضة في الدنيا وهي للمؤمنين في .الآخرة، ولهذا كان العلماء يجعلون اتخاذ الحرير واواني الذهب والفضة تشبها بالكفار

ففي الصحيحين عن ابي عثمان النهدي، قال: كتب الينا عمر رضي الله عنه ونحن بأذربيجان مع عتبة بن فرقد: يا عتبة انه ليس من كد ابيك ولا من كد أمك فأشبع المسلمين في رحالهم مما تشبع منه في رحلك، وإياكم والتنعم وزي أهل الشرك ولبوس الحرير فان رسول الله صلى الله عليه وسلّم: نهى عن لبوس الحرير قال": إلا هكذا" _ورفع لنا رسول الله صلى الله عليه .وسلّم بأصبعيه: الوسطى والسبابة وضمهما

وروى أبو بكر الخلال باسناد عن محمد بن سيرين، ان حذيفة بن اليمان أتى بيتا فرأى فيه حارستان: فيه أباريق الصفر والرصاص، فلم يدخله. وقال: من تشبه بقوم فهو منهم. وفي لفظ آخر: فرأى شيئا من زي العجم فخرج وقال: من تشبّه يقوم فهو منهم. وقال عليّ بن أبي صالح السواق: كنا في وليمة، فجاء أحمد بن حنبل، فلمّا دخل نظر إلى كرسي في الدار عليه فضّة،

فخرج فلحقه صاحب الدار، فنفض يده في وجهه، وقال: زيّ المجوس !زيّ المجوس.! وقال في رواية صالح: إذا كان في الدعوة مسكر، أو شيء من آنية المجوس: الذهب والفضّة، أو ستر الجدران بالثياب، خرج ولم يطعم.

ولو تتبّعنا ما في هذا الباب عن النبي ﷺ، مع ما دلّ عليه كتاب الله، لطال] . "44[

يُمثّل النسقُ الاستقصائيّ في اقتضاء الصراط المستقيم البنيةَ المنهجيةَ العميقة التي يعتمد عليها" ابن تيمية" ؛ فهو لا يتعامل مع المسائل بوصفها قضايا تجزيئية أو أحكامًا فقهية منعزلة، لكن تُظهر مقدرته على استيعاب النصوص الشرعية، وربطها بالسياق التاريخي والاجتماعي، وتحليلها، مع استحضار واسع لمصادر السلف على اختلاف عصورهم ومشاربهم، وهذا هو ما منح الكتاب طابعه الموسوعي وقيمته العلمية الاستثنائية، وجعلته مرجعًا رئيسًا في دراسة مفهوم "المخالفة" وعلاقته بالهوية الإسلامية واستقلال المنهج.

ويؤكد هذه المكانة والعقلية الخارقة، ما قاله القاضي ابن دقيق العيد: " لما اجتمعت بابن تيمية رأيت رجلًا كُلُّ العلوم بين عينيه، يأخُذ ما يريد ويَدَع " .[45]

_3مفهوم الاقتضاء عند "ابن تيمية" وتطبيقاته في كتاب اقتضاء الصراط المستقيم

يُعدّ مفهوم «الاقتضاء» من المفاهيم المركزية في البناء الفكري عند "ابن تيمية"، ولا سيما في كتابه اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم، حيث لا يرد المفهوم بوصفه اصطلاحًا لغويًا عابرًا، بل باعتباره أداة تفسيرية حاكمة تنظّم العلاقة بين الظاهر والباطن، وتضبط من خلالها بنية السلوك الفردي والجماعي في سياق الانتماء العقدي، ومن ثم فإن الوقوف على هذا المفهوم لا يندرج ضمن التعريفات المعجمية فحسب، بل يتطلب تفكيك آلياته الاشتغالية داخل النص، واستجلاء حضوره في مختلف الأبواب التي يعالجها المؤلف.

الاقتضاء في اللغة

يقال : قضى يقضي قضاء فهو قاض إذا حكم وفصل . وقضاء الشيء : إحكامه وإمضاؤه والفراغ منه، فيكون بمعنى الخلق.

قال ابو اسحق: وقضى في اللغة على ضروب كلها ترجع إلى معنى انقطاع الشيء وتمامه ومنه قوله تعالى :(ثم قضى أجلا) معناه ثم حتم بذلك وأتمه، ومنه الإعلام ومنه قوله تعالى :(وقضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب) ، أي : أعلمناهم إعلاما قاطعا، ومنه القضاء للفصل في الحكم وهو قوله :(ولولا أجل مسمى لقضي بينهم) ، أي : لفصل الحكم بينهم .. والانقضاء : ذهاب الشيء وفناؤه وكذلك التقضي . وانقضى الشيء وتقضى بمعنى . وانقضاء الشيء وتقضيه : فناؤه وانصرامه.[46]

وقال الزجاج: "قضى في اللغة على ضروب كلها ترجع إلى معنى انقطاع الشيء وتمامه. يقال: قضى الله أمرا، أي: قدره وأراد خلقه ".[47]

عليه، يمكن تعريف الاقتضاء بأنه الانقطاع إلى الشيء ومتابعته ولزومه. واقتضاء الصراط المستقيم متابعته واقتفائه ولزومه، وفي السياق العقدي والسلوكي، يُوظَّف مفهوم الاقتضاء للدلالة على العلاقة الوثيقة بين الظاهر والباطن؛ إذ إن التشابه في الهدي الظاهر من لباس وهيئة وعادات يفضي إلى مشابهة في الأخلاق والطباع في أغلب الأحوال. ومن ثمّ، قرر العلماء أن مخالفة أهل الضلال والكفر في الظاهر ليست مجرد مخالفة عديمة الفائدة أو شعار، بل هي في حقيقة الأمر اقتضاء يُثمر مفارقة روحية وسلوكية، وحاجز صد من أخلاق وعقائد المغضوب عليهم أو الضالّين. وقد استقصى المؤلف_ رحمه الله_ في سائر الكتاب كل مواضع مخالفة وموالاة الضالين واصحاب الجحيم، والاهتداء والاقتضاء بالصراط المستقيم.

البناء المفهومي للاقتضاء عند "ابن تيمية"

1. من الدلالة اللغوية إلى التوظيف الاصطلاحي

ينطلق مفهوم «الاقتضاء»_كما هو معلوم _من جذر «قضى» الذي يفيد الإحكام والإتمام والانقطاع إلى الشيء، وهو ما يشير إلى معنى اللزوم والتمام. غير أن "ابن تيمية" لا يقف عند هذا الحد، بل يعيد توجيه هذا المعنى ليصوغه ضمن علاقة ديناميكية تقوم على اللُّزوم المتبادل بين الظاهر والباطن، بحيث لا يعود الفعل الظاهر مجرد انعكاس لحالة داخلية، بل يصبح عنصرًا فاعلًا في تشكيلها.

2. الاقتضاء بوصفه علاقة ترابط سببي

يتأسس مفهوم الاقتضاء عند "ابن تيمية" على افتراض وجود ترابط غير منفصل بين السلوك الظاهر والبنية الباطنية، وهو ترابط يتخذ طابعًا سببيًا في الغالب، من حيث كونه مقتضيًا راجحًا يُفضي بحسب العادة والطبيعة إلى نتائج متقاربة.

3. الاقتضاء كآلية لضبط الهوية العقدية

لا يقف الاقتضاء عند حدّ التفسير، بل يتخذ وظيفة معيارية، حيث يتحول إلى أداة لضبط حدود الجماعة المؤمنة، من خلال تقوية عناصر التمايز، وتقليل فرص التشابه المؤدي إلى الذوبان.

وعليه، فإن مفهوم الاقتضاء يرتبط ارتباطًا وثيقًا بمفاهيم: الموالاة، المباينة، التشبه، بوصفها دوائر متداخلة تعمل جميعها على صيانة البنية العقدية من التأثر الخارجي.

تطبيقات مفهوم الاقتضاء في اقتضاء الصراط المستقيم

1. المخالفة في الظاهر وأثرها في الباطن

يُعدّ هذا التطبيق من أكثر المواضع وضوحًا في الكتاب؛ إذ يقرر "ابن تيمية" أن المخالفة الظاهرة لأهل الكتاب والمشركين ليست مجرد سلوك شكلي، بل هي وسيلة مقصودة لتحقيق مباينة أعمق. فالمخالفة هنا: ليست غاية في ذاتها بل وسيلة لتحقيق استقلال عقدي وسلوكي ويستند في ذلك إلى أن: المشاركة في الظاهر تُضعف حدّة المفارقة، وتفتح باب الموافقة القلبية ولو على نحو تدريجي.

2. المشاركة في الأعياد

يتوسع المؤلف في بيان حكم الأعياد، ويجعلها من أبرز مجالات تطبيق الاقتضاء، حيث يرى أن: الأعياد تمثل شعائر دينية لا مجرد عادات اجتماعية، والمشاركة فيها تُفضي إلى نوع من الموافقة الضمنية، ومن ثم فإن الاقتضاء يعمل هنا بوصفه رابطًا بين الفعل الظاهر (المشاركة) والانتماء الباطني (الإقرار أو القبول)

3. الموالاة والمباينة

في معالجته لمسألة الموالاة، يقرر "ابن تيمية" أن: الموالاة أصلها قلبي لكن الظاهر يعين على ترسيخها أو إضعافها وعليه، فإن: المخالفة الظاهرة هي أداة تقوية للمباينة القلبية، والمشاركة الظاهرة هي مدخل لاحتمال الموالاة، وهذا تطبيق مباشر لمفهوم الاقتضاء بوصفه علاقة تأثير متبادلة بين الظاهر والباطن.

" قال الله تعالى:(إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ (55) وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ (56). ونظائر هذا في غير موضع من القرآن: يأمر سبحانه بموالاة المؤمنين حقا_الذين هم حزبه وجنده_ويخبر ان هؤلاء لا يوالون الكافرين ولا يوادونهم.

والموالاة والموادة: وان كانت متعلقة بالقلب، لكن المخالفة في الظاهر أعون على مقاطعة والكافرين ومباينتهم.

ومشاركتهم في الظاهر: ان لم تكن ذريعة أو سببا قريبا أو بعيدا إلى نوع ما من الموالاة والموادة، فليس فيها مصلحة المقاطعة والمباينة مع أنها تدعو إلى نوع ما من المواصلة_كما توجبه الطبيعة وتدل عليه العادة_ ولهذا كان السلف رضي الله عنهم يستدلون بهذه الآيات على ترك الاستعانة بهم في الولايات ". [48]

4. الاستعانة بغير المسلمين

يربط المؤلف بين مسألة الاستعانة وبين مفهوم الاقتضاء، من حيث إن: القرب العملي والتعامل المستمر قد يُفضي إلى نوع من الألفة والميل، وهذا الميل، وإن لم يكن مقصودًا ابتداءً، إلا أنه يدخل في دائرة ما يقتضيه التداخل الظاهري من آثار باطنية.

التحليل التركيبي للمفهوم داخل بنية الكتاب

1. مركزية الاقتضاء في بناء الحجاج

لا يظهر الاقتضاء كمفهوم مستقل فحسب، بل بوصفه مبدأ حاكمًا لبنية الاستدلال في الكتاب؛ إذ تتفرع عنه جملة من الأحكام والتوجيهات، وتُبنى عليه استنتاجات تتعلق بالسلوك الفردي والجماعي.

2. تجاوز الفصل بين الظاهر والباطن

يؤسس "ابن تيمية" من خلال هذا المفهوم لرؤية تتسم بالوحدة، حيث: لا يُفصل بين العمل والاعتقاد ولا يُنظر إلى الأفعال باعتبارها محايدة بل تُفهم في سياق شبكة من التأثيرات المتبادلة.

3. الطابع الوقائي للمفهوم

يتخذ الاقتضاء في مجمله طابعًا وقائيًا، إذ يهدف إلى سدّ الذرائع المؤدية إلى التدرّج في الموافقة، وحماية الجماعة من الانزلاق غير الواعي نحو أنماط مغايرة.

يتبيّن من خلال هذا العرض أن مفهوم «الاقتضاء» عند "ابن تيمية" يتجاوز كونه دلالة لغوية أو ملاحظة سلوكية، ليغدو مبدأً نظريًا متكاملًا يفسّر العلاقة بين الظاهر والباطن، ويوجّه السلوك في ضوء هذه العلاقة. كما يتضح أن حضوره في اقتضاء الصراط المستقيم ليس حضورًا عرضيًا، بل هو محور تنتظم حوله مختلف مباحث الكتاب، سواء في مسائل المخالفة، أو الأعياد، أو الموالاة، أو غيرها.

ومن ثم فإن فهم هذا المفهوم يُعدّ مدخلًا ضروريًا لفهم البنية الكلية للكتاب، بل لفهم جانب معتبر من التصور الفكري عند "ابن تيمية" في علاقته بقضايا الهوية والسلوك والانتماء.

_4مفهوم المخالفة

يُعدّ مفهوم مخالفة غير المسلمين في الهدي الظاهر، مدخلًا أساسًا لفهم البنية القيمية وآليات تشكّل الهوية في التراث الإسلامي، ولا سيما في المعالجة المنهجية التي قدّمها شيخ الإسلام "ابن تيمية" لمسألتي المماثلة والمشابهة، إذ لا تُطرح المخالفة في هذا السياق بوصفها إجراءً شكليًا أو التزامًا مظهريًا معزولًا، وإنما تُؤسَّس باعتبارها آلية معرفية وتربوية ذات أبعاد عقدية وسلوكية، تسهم في تثبيت معالم التمايز الديني، وتعزيز الاستقلال القيمي للمجتمع المسلم، والحدّ من آثار التأثر غير المنضبط بأنماط الهدي والممارسة المرتبطة بأهل الجحيم.

وقد قرر شيخ الإسلام ثلاثة مسائل كما ترى الدراسة، تتعلق بأوجه المشاركة في الهدي الظاهر، ومخالفة اهل الجحيم:

أولًا: إن المشاركة في الهدي الظاهر، تُفضي بطبيعتها إلى نوع من التماثل في الأخلاق والعادات والأنماط السلوكية لغير المسلمين؛ إذ إن التشابه الخارجي غالبًا ما يُشكّل جسرًا ومعبرا إلى تماهٍ وانسجام داخلي وتلقي بطريقة غير مباشرة للمنظومات القيمية للآخر. ومن ثمّ، فإن التشابه الظاهر يصبح مدخلًا إلى التشابه الباطن، بما يحمله ذلك من مخاطر على البنية المعرفية والوجدانية للمجتمع المسلم وهويته.

ثانيًا: المخالفة تحقق مقصدًا تربويًا أساسيا يتمثل في مفارقة أهل الانحراف والضلال والابتداع، وقطع الصلة الشعورية بما يوجب سخط الله تعالى من افعالهم. فالمخالفة هنا ليست مجرد تركٍ لأفعالهم، بل هي إعلان ولاء وبراء ومفارقة عملية تعكس سلامة الانتماء، ويضمن عدم التماهي في ممارسات وسلوك ينافر مقتضيات الهداية الشرعية، والصراط المستقيم.

ثالثًا: إن المشاركة في الظاهر تُفضي إلى التباس واختلاط بين أهل الهدى وأهل الضلال، وهو التباس من شانه يطمس معالم الهوية الاسلامية ويُضعف القدرة على التمييز القيمي والسلوكي.

فإذا انمحت الفوارق الظاهرة بين اصحاب الصراط المستقيم واصحاب الجحيم، ضعُف أثر الفوارق العقدية، ووقع الخلط بين من يَسير على نهج الله ونهج الهداية المستقيم، ومن سلك سبيل المغضوب عليهم والضالين.

" وقد بعث الله محمداً صلى الله عليه وسلم بالحكمة التي هي سنته، وهي الشرعة والمنهاج الذي شرعه له. فكان من هذه الحكمة أن شرع له من الأعمال والأقوال ما يبين سبيل المغضوب عليهم والضالين، فأمر بمخالفتهم في الهدي الظاهر ، وإن لم يظهر لكثير من الخلق في ذلك مفسدة لأمور:

منها: أن المشاركة في الهدي الظاهر تورث تناسبًا وتشاكلاً بين المتشابهين، يقود إلى موافقةٍ ما في الأخلاق والأعمال. وهذا أمر محسوس، فإن اللابس ثياب اهل العلم يجد من نفسه نوع انضمام إليهم، واللابس لثياب الجند المقاتلة - مثلًا - يجد من نفسه نوع تخلق بأخلاقهم، ويصير طبعه متقاضيا لذلك إلا انه يمنعه مانع.

ومنها: أن المخالفة في الهدي الظاهر توجب مباينة ومفارقة توجب الانقطاع عن موجبات الغضب، وأسباب الضلال، والانعطاف على أهل الهدي والرضوان، وتحقق ما قطع الله من الموالاة: بين جنده المفلحين وأعدائه الخاسرين.

وكلما كان القلب أتمَّ حياة، وأعرف بالإسلام ـ الذي هو الإسلام_، لست أعني مجرد التوسم به ظاهرا، أو باطناً بمجرد الاعتقادات، من حيث الجملة ـ كان إحساسه بمفارقة اليهود والنصارى باطناً وظاهراً أتم، وبعده عن أخلاقهم الموجودة في بعض المسلمين؛ أشد. ومنها: أن مشاركتهم في الهدي الظاهر، نوجب الاختلاط الظاهر، حتى يرتفع التميز ظاهراً بين المهديين المرضيين، وبين المغضوب عليهم والضالين، إلى غير ذلك من الأسباب الحكمية. هذا، وإذا لم يكن ذلك الهدي الظاهر، إلا مباحا مُحضاً لو تجرد عن مشابهتهم، فأما إن كان من موجبات كفرهم كان شعبة من شعب الكفر، فموافقتهم فيه موافقة في نوع من أنواع معاصيهم. فهذا أصل ينبغي أن يُتفطن له".[49]

في هذا السياق، فإن المخالفة في السلوك الظاهر ليست مجرد توجيه فقهي وحسب، بل تمثّل آلية تربوية لحماية الهوية من الطمس أو الانحراف، وهي ايضا ضبط للانتماء، وصيانة المجال الأخلاقي للمسلمين. وتفسير" ابن تيمية" لهذه الظاهرة يكشف عن منظور عميق ورصين، يمزج بين التحليل الاجتماعي، والمقصد الشرعي، والاعتبار العقدي، مما يرفع المسألة من كونها حكمًا جزئيًا إلى كونها مكوّنًا بنيويًا.

يقول "ابن تيمية": " ان المشابهة في الظاهر تورث نوع مودة ومحبة، وموالاة في الباطن، كما ان المحبة في الباطن تورث المشابهة في الظاهر وهذا أمر يشهد به الحس والتجربة، حتى ان الرجلين اذا كانا من بلد واحد ثم اجتمعا في دار غربة كان بينهما من المودة والائتلاف أمر عظيم وان كانا في مصرهما لم يكونا متعارفين، أو كانا متهاجرين. وذلك لأن الاشتراك في البلد نوع وصف اختصا به عن بلد الغربة بل لو اجتمع رجلان في سفر، أو بلد غريب، وكانت بينهما مشابهة في العمامة أو الثياب، أو الشعر، أو المركوب، ونحو ذلك، لكان بينهما من الائتلاف أكثر مما بين غيرهما، وكذلك تجد أرباب الصناعات الدنيوية، يألف بعضهم بعضًا، ما

لا يألفون غيرهم، حتى إن ذلك يكون مع المعاداة والمحاربة.. فإذا كانت المشابهة في أمور دنيوية، تورث المحبة والموالاة لهم، فكيف بالمشابهة في أمور دينية؟ فإن إفضاءها إلى نوع من الموالاة أكثر وأشد، والمحبة والموالاة لهم تنافي الايمان". [50].

يؤسّس "ابن تيمية" في معالجته لمسألة التشبّه لمنظورٍ يتجاوز الفعل الظاهر إلى ما ينطوي عليه من دلالات باطنية؛ إذ يرى أن التشبّه بالكفار في الهيئات الظاهرة ـ من لباسٍ، أو عاداتٍ، أو أنماط سلوك، ليس مجرد ممارسة شكلية معزولة عن الداخل النفسي والعقدي، بل هو في الغالب انعكاسٌ لحالةٍ وجدانية كامنة تتصل بموقفٍ من الآخر. فالفعل التشبهي، في تصوّره، لا يصدر عادةً عن فراغ، وإنما ينبثق عن نوعٍ من الميل القلبي أو الإعجاب الضمني، ولو لم يُصرَّح به صراحة.

ومن ثمّ، فإن التشبّه الظاهر يُفهم بوصفه مؤشّرًا على وجود قدرٍ من المودّة أو الاستحسان الباطني تجاه المتشبَّه به، إذ إن الإنسان لا يميل إلى تقليد من يحتقره أو ينفر منه، وإنما يُحاكي من يستبطن تفوّقه أو يراه نموذجًا أرقى. وفي هذا السياق، يغدو التشبّه تعبيرًا غير مباشر عن خللٍ في ميزان الانتماء، حيث ينتقل مركز الجاذبية النفسية من الذات الحضارية إلى الآخر، فتُستورد رموزه وسلوكياته بوصفها معايير ضمنية للقيمة والاعتبار.

وعلى هذا الأساس، لا يتعامل "ابن تيمية" مع التشبّه باعتباره مخالفةً ظاهرية فحسب، بل ينظر إليه بوصفه مسارًا تدريجيًا قد يُفضي إلى تآكل الفوارق العقدية والرمزية بين الجماعات، إذ إن المودّة الباطنة تُنتج مشابهةً ظاهرة، وهذه المشابهة بدورها تُعيد تشكيل منظومة الولاء والانتماء. ومن هنا جاءت النواهي الشرعية عن التشبّه باعتبارها إجراءات وقائية لحماية الهوية الدينية، وصيانة التمايز العقدي والنفسي، قبل أن يتحوّل الإعجاب الخفي إلى تبعيةٍ صريحة، أو الانبهار العارض إلى ولاءٍ مستقر.

وقد استقصى "ابن تيمية" في مؤلفه عددا من مظان ومواضع التشبه بأهل الجحيم التي نهى عنها الشرع الحنيف منها:

_1النهي عن اتخاذ اليهود والنصارى أولياء

_2النهي عن الرهبانية والتشدد في الدين كما فعل اهل الكتاب

_3النهي عن الغلو في الدين كما فعل النصارى

_4النهي عن زي اهل الشرك وزي العجم والتنعم

_5النهي عن النياحة والفخر بالانساب والطعن في الانساب والاستسقاء بالنجوم لانها من أمر الجاهلية

_6النهي عن مواصلة الصوم كما يفعل النصارى

_7النهي عن رفع القبور كما يفعل اليهود والنصارى

_8النهي عن مشابهة بني إسرائيل من التفريق بين الشريف والضعيف في اقامة الحدود

_9النهي عن اتخاذ القبور مساجد كما فعلت الامم التي قبلنا

_10النهي عن تخصيص اوقات بصلاة أو صيام كيوم الجمعة وغيره

_11النهي عن الصلاة في الطاقة (المحراب) لأنه يشبه فعل اهل الكتاب

_12النهي عن الاختصار في الصلاة كما يفعل اليهود

_13النهي عن تغطية الفم في الصلاة كما يفعل المجوس عند نيرانهم

_14كراهية الرسول صلى الله عليه وسلم بوق اليهود وناقوس النصارى لعلة المخالفة

_15كراهية القيام للجنازة اذا مرت لأنه من فعل أهل الكتاب واهل الجاهلية

_16الامر بصبغ الشيب لان اليهود والنصارى لا يصبغون

_17الامر باعفاء اللحى واحفاء الشوارب مخالفة للمشركين والمجوس

_18الامر بالسحور مخالفة لاهل الكتاب

_19الامر بتعجيل الفطور مخالفة لاهل الكتاب

واستنادا إلى هذه المواضع، ترى الدراسة أن "ابن تيمية" ينظر إلى هذه النواهي باعتبارها ضوابط كلية لصيانة الهوية الإسلامية، وضبط المجال العقدي والسلوكي، بما يمنع اختلال معالم الانتماء أو ذوبانها، ويُرسّخ التمايز الحضاري في مواجهة أنماط التشبّه المفضية إلى انحراف أهل الجحيم.

_5مفهوم المخالفة وأثره في صيانة العدل وبناء الهوية الشرعية

يندرج مبدأ المساواة في إقامة العدل ضمن الأصول المركزية التي يُؤسّس بها الإسلام مفهوم المخالفة، في مواجهة النماذج الحضارية المنحرفة التي ميّزت بين الناس في إنفاذ الأحكام، تبعًا للمكانة الاجتماعية أو النفوذ.

وقد كان من مظاهر الانحراف في الممارسة القضائية لدى اليهود تنفيذ أحكام العدل على الضعفاء وعامة الناس دون الرؤساء وذوي الشرف، في حين قرّر الإسلام مبدأ الخضوع العام للحكم الشرعي دون تمييز قائم على أساس عِرقي أو طبقي أو اجتماعي. ويُعدّ هذا المبدأ من ركائز إقامة العدل، لما يترتّب عليه من إشاعة الطمأنينة العامة، وترسيخ الثقة في منظومة الحكم، وربط الناس بالحق لا بالأشخاص. وقد نبّه شيخ الإسلام "ابن تيمية" إلى هذا الأصل في اقتضاء الصراط المستقيم، وعدّه من أبواب مخالفة أهل الجحيم، لما ينطوي عليه التفريق في إنفاذ الأحكام من نقضٍ لمقاصد الشريعة وإحياءٍ لمسالك الأمم المنحرفة.

ويكشف هذا الموضع بوضوح أن المساواة أمام الحكم الشرعي في التصور الإسلامي ليست مجرّد قيمة أخلاقية توجيهية، بل أصلٌ بنيوي تقوم عليه بنية العدل واستقامة المجتمع. وقد بيّن "ابن تيمية" أن التمييز في تطبيق الحدود يُفضي إلى خللٍ مزدوج؛ إذ يُنتج ظلمًا مباشرًا يقع على الفئات الضعيفة، ويُحدث في الوقت ذاته فسادًا أخلاقيًا في بنية السلطة، حين يتحوّل الحكم من معيارٍ عامٍّ مُلزم إلى أداة انتقائية تخضع للاعتبارات الاجتماعية والسياسية.

ومن هذا المنطلق، عدّ "ابن تيمية" هذا المسلك من صور مشابهة أهل الجحيم؛ لأن التفريق بين الناس في إقامة العدل يُفضي إلى نقض مقصود الشريعة في تحقيق القسط، ويُعيد إنتاج النموذج الحضاري المنحرف الذي كان سببًا في هلاك الأمم السابقة. فالعدل في الرؤية الإسلامية ليس خاضعًا لموازين السياسة ولا لاعتبارات النفوذ الاجتماعي، بل هو حكمٌ عامٌّ شامل، تلتزم به الجماعة، وتُصان من خلاله هيبة الشرع، وتُحفَظ به هوية الأمة ومقاصدها.

" ومن ذلك: أنه ﷺ حذّرنا من مشابهة من قبلنا، في أنهم كانوا يفرّقون في الحدود بين الأشراف والضعفاء، وأمر أن يسوى بين الناس في ذلك، وإن كان كثير من ذوي الرأي والسياسة قد يظن أن إعفاء الرؤساء أجود في السياسة.

ففي الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها في شأن المخزومية التي سرقت، لما كلّم أسامة فيها رسولُ الله ﷺ قال: "يا أسامة، أتشفع في حدٍّ من حدود الله؟! إنما هلك بنو إسرائيل أنهم كانوا: إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد. والذي نفسي بيده، لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها.

وكان بنو مخزوم من أشرف بطون قريش، وأشتدّ عليهم أن تُقطع يد امرأةٍ منهم، فبيّن ﷺ: أن هلاك بني إسرائيل إنما كان في تخصيص رؤساء الناس بالعفو عن العقوبات، وأخبر: أن فاطمة ابنته التي هي أشرف النساء لو سرقت، وقد أعاذها الله من ذلك، لقطع يدها، ليبيّن: أن وجوب العدل والتعميم في الحدود، لا يُستثنى منه بنت الرسول فضلًا عن بنت غيره ".[51]

_6مبدأ مخالفة أصحاب الجحيم عند "ابن تيمية" وأبعاده التأصيلية والتطبيقية في كتاب اقتضاء الصراط المستقيم

يمثّل مبدأ «مخالفة أصحاب الجحيم» أحد الأصول الحاكمة في البناء الفكري عند "ابن تيمية"، حيث لا يرد بوصفه توجيهًا جزئيًا أو حكمًا فرعيًا، بل يتأسس باعتباره قاعدةً كليةً تنتظم تحتها جملة من الأحكام والتوجيهات التي تهدف، في مجموعها، إلى صيانة الهوية العقدية للمسلم، وضبط علاقته بالآخر المخالف. ومن ثم فإن هذا المبدأ لا يُفهم في إطاره السلوكي الظاهر فحسب، بل يتجاوز ذلك إلى كونه تعبيرًا عن رؤية مركبة للعلاقة بين الظاهر والباطن، وبين الفرد والجماعة، وبين الانتماء العقدي ومظاهره العملية.

أولًا: الركائز التأصيلية لمبدأ مخالفة أصحاب الجحيم

1. الركيزة النصية واستقراء موارد الشرع

ينطلق "ابن تيمية" في تقرير هذا الأصل من استقراء واسع لنصوص الكتاب والسنة، حيث تتكرر الأوامر والنواهي المرتبطة بمخالفة الكفار والشيطان في سياقات متعددة، وهو ما يدل في نظره على أن هذه المخالفة ليست حكمًا عارضًا، بل مقصدًا شرعيًا متكرر الورود، يرقى إلى مستوى القاعدة العامة.

فالنص القرآني كما في قوله تعالى : ﴿ يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾. الأعراف (27) يؤسس لعلاقة تقابلية بين أهل الإيمان وأهل الكفر، تستدعي بطبيعتها نوعًا من المباينة. كما أن السنة النبوية تعضّد هذا المعنى من خلال تعليل بعض الأوامر بكونها مخالفة للشيطان، كما في النهي عن الأكل بالشمال.

"ومما يشبه الأمر بمخالفة الكفار: الأمر بمخالفة الشياطين، كما رواه مسلم في صحيحه، عن ابن عمر رضي الله عنهما: أن النبي ﷺ قال:" لا يأكلن أحدكم بشماله، ولا يشربن بها، فإن الشيطان يأكل بشماله، ويشرب بها.

" وفي لفظ: "اذا أكل أحدكم فليأكل بيمينه، وإذا شرب فليشرب بيمينه، فإن الشيطان يأكل بشماله، ويشرب بشماله". ورواه مسلم أيضًا عن الليث، عن أبي الزبير، عن جابر، عن النبي ﷺ قال:" لا تأكلوا بالشمال، فإن الشيطان يأكل بالشمال". فإنه علّل النهي عن الأكل والشرب بالشمال، بأن الشيطان يفعل ذلك: فعُلِم أن مخالفة الشيطان أمر مقصود مأمور به، ونظائره كثيرة".[52]

2. الركيزة التعليلية وبناء العلة الشرعية

لا يكتفي "ابن تيمية" بسرد النصوص، بل يتجاوز ذلك إلى استخراج عللها، حيث يرى أن تعليل النبي ﷺ لبعض الأحكام بكونها مخالفة للشيطان يدل على أن المخالفة مقصودة لذاتها، وليست تابعة لغيرها. مثل حديث: «فإن الشيطان يأكل بشماله» فإن تحليله ان النص لا يكتفي بالنهي، بل يكشف العلة: فعل الشيطان، وهذا ما يعني أن المخالفة ليست شكلًا، بل مقصود شرعي معلَّل.

3. الركيزة البنيوية: ترابط الظاهر والباطن

يؤسس "ابن تيمية" لهذا المبدأ على تصورٍ مركزي مفاده أن: الظاهر والباطن بينهما علاقة تأثير متبادل، وأن السلوك الظاهر ليس مجرد تعبير عن الباطن، بل قد يكون سببًا في تشكيله، ومن ثم فإن: التشبه الظاهري يفضي في الغالب إلى نوع من الموافقة الباطنية، والمخالفة الظاهرة تعين على تحقيق المباينة القلبية، وهذا التصور يمنح مبدأ المخالفة عمقًا يتجاوز الشكل إلى الجوهر.

4. الركيزة المقاصدية: حفظ الهوية والتميّز

يتنزّل هذا المبدأ ضمن مقصد كلي يتمثل في: حفظ الهوية العقدية، وصيانة الجماعة من الذوبان في غيرها، فالمخالفة هنا ليست مجرد تمايز شكلي، بل وسيلة لتحقيق: الاستقلال المعرفي والسلوكي، وترسيخ الانتماء الإيماني.

ثانيًا: تحديد مفهوم «أصحاب الجحيم» في خطاب "ابن تيمية"

مصطلح «أصحاب الجحيم» عند "ابن تيمية" لا يُفهم بوصفه توصيفًا أخرويًا فقط، بل يحمل دلالة منهجية ووظيفية في سياق الكتاب تشمل:

1. الدائرة العقدية

الكفار عمومًا، أهل الكتاب، المشركين

2. الدائرة المنهجية

يُستحضر هذا المصطلح بوصفه: نموذجًا مضادًا، يُقاس عليه في باب المخالفة، بحيث يُحدَّد «الصراط المستقيم» من خلال مفارقته.

3. الارتباط بالشيطان

يربط "ابن تيمية" بين الكفار والشيطان من حيث: الولاية، والاتباع، مما يجعل مخالفة هؤلاء امتدادًا لمخالفة الشيطان نفسه.

ثالثًا: العلل المقصودة من مخالفة أصحاب الجحيم

1. تحقيق الامتثال للنصوص الشرعية

حيث إن النصوص: أمرت بالمخالفة، وعلّلت بها، فأصبح الامتثال لها جامعًا بين البعد التعبدي، والبعد التعقلي.

2. سدّ ذرائع التشبه

يرى "ابن تيمية" أن التشبه يبدأ من الظاهر، وينتهي إلى الباطن، ومن ثم فإن المخالفة تُغلق هذا المسار من بدايته.

3. قطع مداخل الشيطان

بما أن الشيطان يعمل بالتدرّج، ويستغل الألفة والعادة، فإن المخالفة تمثل إجراءً وقائيًا يمنع التسلل التدريجي.

4. ترسيخ المباينة القلبية

المخالفة الظاهرة تؤدي إلى تقوية الشعور بالتمايز، وتعزيز الانتماء العقدي.

5. تحقيق الاستقلال الحضاري والسلوكي

من خلال بناء نمط خاص في السلوك، وعدم الذوبان في أنماط الآخرين

يتبيّن من خلال هذا العرض أن مبدأ «مخالفة أصحاب الجحيم» عند "ابن تيمية" ليس توجيهًا جزئيًا أو سلوكًا شكليًا، بل هو بنية نظرية متكاملة تقوم على تداخل النص والتعليل والمقصد، وتُترجم عمليًا في مختلف مجالات الحياة. كما يتضح أن هذا المبدأ يرتبط ارتباطًا وثيقًا بمفهوم «الاقتضاء»، حيث تعمل المخالفة بوصفها آلية لضبط العلاقة بين الظاهر والباطن، وصيانة الهوية العقدية من التآكل أو الذوبان، عبر سدّ ذرائع التشبّه، وقطع مداخل التأثر، استنادًا إلى تعليل شرعي متكرر في النصوص.

وبذلك يغدو هذا المفهوم أحد المفاتيح الأساسية لفهم المشروع الفكري عند "ابن تيمية" في سياق علاقته بالآخر، وفي إطار سعيه إلى بناء نموذج سلوكي متميّز يعكس خصوصية الانتماء الإيماني ويحافظ على حدوده.

_7القيام والتعظيم من سنن اهل الجحيم

ونبه شيخ الإسلام "ابن تيمية" في اقتضاء الصراط المستقيم، إلى أهمية مباينة ومخالفة أصحاب الجحيم في أفعالهم المتعلقة بالقيام وتعظيم الآخرين، مؤكّدًا أن هذا التوجيه النبوي يستند إلى أصل المساواة بين الناس في الحقوق والواجبات، فلا يقوم أحد لأحد ولا يعظم غيره.

ويكتسب هذا الأصل أهميته من كونه يغلق الباب على الانزلاق نحو الشرك والضلال، كما ظهر في تاريخ العرب قبل الإسلام حين عُظمت أصنام مثل اللات وهبل ومناة ويغوث ويعوق ونسر، وهي في الأصل ترمز لرجال صالحين، فأدى التعظيم الجاهلي إلى عبادتها من دون الله.

" عن جابر بن عبدالله رضي الله عنهما أنه قال: "اشتكى رسول الله صلى الله عليه وسلم فصلينا وراءه وهو قاعد وابوبكر يسمع الناس تكبيره فالتفت الينا فرأنا قياما فأشار الينا فقعدنا فصلينا بصلاته قعودا فلما سلم قال:" ان كدتم آنفا تفعلون فعل فارس والروم: يقومون على ملوكهم وهم قعود فلا تفعلوا، ائتموا بأئمتكم، ان صلى قائما فصلوا قياما وان صلى قاعدا فصلوا قعودا "،رواه مسلم وابو داود من حديث الليث عن أبي الزبير عن جابر. ورواه أبو داود وغيره من حديث الاعمش عن أبي سفيان عن جابر، قال:" ركب رسول الله صلى الله عليه وسلّم فرسا بالمدينة فصرعه على جُذِم نخلة، فانقطعت قدمه، فأتيناه نعوده، فوجدناه في مشربة لعائشة يسبّح جالسًا، قال: فقمنا خلفه، فسكت عنا، ثم أتيناه مرة أخرى نعوده، فصلّى المكتوبة جالسًا، فقمنا خلفه، فأشار إلينا فقعدنا، قال : فلما قضى الصلاة قال: " إذا صلى الإمام جالسًا فصلّوا جلوسًا، وإذا صلى الإمام قائمًا فصلّوا قيامًا، ولا تفعلوا كما يفعل أهل فارس بعظمائها". وأظن في غير رواية أبي داود: " ولا تعظموني كما يعظم الأعاجم بعضهم بعضًا ". ففي هذا الحديث: أنه أمرهم بترك القيام الذي هو فرض في الصلاة، وعلّل ذلك بأن قيام المأمومين مع قعود الإمام يشبه فعل فارس والروم بعظمائهم في قيامهم وهم قعود. ومعلوم أن المأموم إنما نوى أن يقوم لله لا لإمامه، وهذا تشديدٌ عظيمٌ في النهي عن القيام للرجل القاعد، ونُهي أيضًا عمّا يُشبه ذلك، وإن لم يُقصد به ذلك؛ ولهذا نُهي عن السجود لله بين يدي الرجل، وعن الصلاة إلى ما قُد عبدٌ من دون الله، كالنار ونحوها. وفي هذا الحديث أيضًا نهي عمّا يُشبه فعل فارس والروم، وإن كانت نيتنا غير نيتهم ، لقوله : "فلا تفعلوا". فهل بعد هذا في النهي عن مشابهتهم في مجرد الصورة

غاية؟ ثم هذا الحديث سواء كان محكمًا في قعود الإمام، أو منسوخًا فإن الحُجّة منه قائمة؛ لأن نسخ القعود لا يدل على فساد تلك العلّة، وإنما يقتضي أنه قد عارضها ما ترجح عليها، مثل كون القيام فرضًا في الصلاة؛ فلا يسقط الفرض بمجرد المشابهة الصورية، وهذا محل اجتهاد. وأما المشابهة الصورية إذا لم تسقط فرضًا كانت تلك العلّة التي علّل بها رسول الله ﷺ سليمة" .[53]

ويتبيّن من هذا التأصيل أن تنبيه "ابن تيمية" على ترك القيام والتعظيم ليس توجيهًا سلوكيًا جزئيًا، بل ضبطٌ دقيق لبنية العلاقة الاجتماعية في الإسلام، بما يمنع تحوّلها إلى علاقات تراتبية تُنتج التقديس وتغذّي الاستعلاء الرمزي. فالمخالفة هنا تؤدي وظيفة وقائية؛ إذ تقطع الطريق على نشوء مظاهر التمييز التي تبدأ بالاحترام المبالغ فيه، ثم تنتهي إلى التعظيم المفضي إلى الانحراف العقدي. ومن ثمّ، فإن هذا الأصل يجسّد التقاء المقصد العقدي بالمقصد الاجتماعي، حيث تُصان التوحيدية الخالصة من جهة، وتُرسَّخ المساواة الإنسانية من جهة أخرى، في إطار نسق متكامل يحول دون إعادة إنتاج أنماط التقديس التي أفسدت الأمم السابقة.

_8النهي عن تعظيم الأزمنة والظواهر الكونية وأثره في تحقيق المخالفة

ومن صور المخالفة التي قرّرها الشرع الإسلامي، تحقيقًا لتميّز المسلم وظهوره على أهل الجحيم، النهيُ عن الصلاة في أوقات طلوع الشمس وغروبها؛ لما اقترن بهذه الأزمنة من دلالات شركية في ممارسات الأمم الضالّة، إذ كانت هذه الأوقات موضع تعظيم وسجود للشمس والشيطان. وقد علّل النبي ﷺ هذا النهي بكون الشمس تطلع وتغرب بين قرني شيطان، وحينئذٍ يسجد لها الكفار، فكان المنع الشرعي حسمًا لمادّة المشابهة من أصلها، وإن لم يقصد المسلم بذلك التعظيم أو السجود لغير الله.

ويؤكد هذا التوجيه النبوي أن الشريعة لا تكتفي بمراعاة المقاصد الباطنة، بل تعتني كذلك بالصور الظاهرة إذا كانت مظنّةً للالتباس أو مشابهةً لأفعال المشركين. وقد بيّن شيخ الإسلام أن كثيرًا من الناس قد يجهلون الخلفيات العقدية لهذه الأزمنة، ومع ذلك نُهوا عن الصلاة فيها سدًّا للذريعة، ومنعًا لكل طريق يُفضي إلى التشبّه بأهل الجحيم في عباداتهم.

وتتجلّى حكمة هذا الأصل في واقع بعض الفرق والملل التي لا تزال تُعظّم الكواكب، وتزعم مخاطبتها وقضاء الحاجات عندها، بل تمارس السجود والنحر والذبح لها، وقد تسلّل هذا الفكر إلى بعض المنتسبين إلى الإسلام ممن ألّفوا كتبًا في عبادة الكواكب، توسلًا بزعمهم إلى مقاصد دنيوية، وهي في حقيقتها امتداد لمذاهب شركية قديمة.

وبناءً على ذلك، يتبيّن أن النهي عن الصلاة في هذه الأوقات ليس حكمًا تعبديًا مجردًا، بل هو إجراء وقائي مقصود لحفظ نقاء التوحيد، وصيانة العبادة من كل صورة قد تؤول إلى مشابهة المشركين، ولو على مستوى الظاهر، وهو ما ينسجم مع القاعدة الكلية التي قرّرها "ابن تيمية" في كتابه، من أن المخالفة في الظاهر تُثمر مفارقةً عقدية وسلوكية، وتغلق أبواب الشرك.

" وقد نهى النبي صلى الله عليه وسلّم عن الصلاة وقت طلوع الشمس ووقت الغروب معللا: بأنها تطلع وتغرب بين قرني شيطان وانه حينئذ يسجد لها الكفار، ومعلوم أن المؤمن لا يقصد

السجود إلا لله تعالى: واكثر الناس قد لا يعلمون ان طلوعها وغروبها بين قرني شيطان ولا ان الكفار يسجدون لها، ثم إنه ﷺ، نُهي عن الصلاة في هذا الوقت حسمًا لمادة المشابهة بكل طريق.

ويظهر بعض فائدة ذلك: بأن من الصابئة المشركين اليوم، ممن يظهر الإسلام ويعظم الكواكب، ويزعم أنه يخاطبها بحوائجه، ويسجد لها وينحر ويذبح.

وقد صنفّ بعض المتنسّين إلى الإسلام في مذهب المشركين، من الصابئة والبراهمة كتبًا في عبادة الكواكب، توسّلًا بذلك زعموا إلى مقاصد دنيوية، من الرئاسة وغيرها. وهي من السحر الذي كان عليه الكنعانيون، الذين ملوّكهم: النماردة، الذين بعث الله الخليل صلوات الله وسلامه عليه بالحنيفية، وإخلاص الدين كله لله، إلى هؤلاء المشركين.

فإذا كان في هذه الأزمنة من يفعل مثل هذا: تحقّقت حكمة الشارع صلواتُ اللهِ وسلامُه عليه، في النهي عن الصلاة في هذه الأوقات، سدًّا للذريعة، وكان فيه تنبيه على أن كل ما يفعله المشركون من العبادات ونحوها، مما يكون كفرًا أو معصيةً بالنية، يُنهى المؤمنون عن ظاهره، وإن لم يقصدوا به قصدَ المشركين سدًّا للذريعة وحسمًا للمادة ".[54]

هذا المنهج يعكس الرؤية الاستقصائية والوقائية لـ"ابن تيمية" في معالجة المسائل العقدية والسلوكية، إذ يربط بين النصوص الشرعية والواقع الاجتماعي لضمان التطبيق العملي للشرع دون غموض أو لبس، ويجعل المخالفة قاعدة منهجية لصيانة الهوية الإسلامية.

9مفهوم الهوية تأصيله النظري وتجلّياته في فكر "ابن تيمية"

يُعدّ مفهوم «الهوية» من المفاهيم المركّبة التي تتقاطع فيها الأبعاد الفلسفية والاجتماعية والثقافية في حقل الدراسات الفكرية والحضارية المعاصرة، لما ينطوي عليه من قدرة تفسيرية عالية في تحليل أنماط الانتماء، وتحديد ملامح التمايز بين الجماعات الإنسانية، ويصعب ردّه إلى تعريف أحادي جامع مانع، نظرًا لتعدّد حقوله الدلالية وسياقات استعماله. غير أن ثمة قدرًا من الاتفاق بين الباحثين على أن الهوية تشير إلى:

جملة الخصائص والسمات الجوهرية التي تميّز فردًا أو جماعة، وتمنحها شعورًا بالاستمرار والتميّز والانتماء.

الضبط المفاهيمي للهوية في السياق النظري

يمكن تصنيف التعريفات إلى ثلاثة اتجاهات رئيسة:

1. التعريف الجوهري

يرى أن الهوية هي جوهر ثابت يُعبّر عن حقيقة الكيان، ويميل إلى التركيز على العقيدة، واللغة والتراث.

2. التعريف البنائي

يرى أن الهوية هي بناء اجتماعي تاريخي يتشكّل عبر التفاعل، ويركّز على التغيّر، والتشكّل، والعلاقة بالآخر.

3. التعريف الوظيفي

يُعرّف الهوية بأنها أداة لضبط السلوك وتوجيه الانتماء، ويركّز على، دورها في التنظيم الاجتماعي، وبناء الوعي الجماعي.

مع ذلك يمكن تقديم تعريف جامع:

الهوية منظومة من المقومات العقدية والثقافية والسلوكية، تُنتج وعيًا بالذات الجماعية، وتؤسس للتميّز والاستمرار، وتتشكّل عبر التفاعل التاريخي والاجتماعي.

توظيف مفهوم الهوية عند "ابن تيمية"

لا يستعمل "ابن تيمية" مصطلح «الهوية» بصيغته الاصطلاحية الحديثة، غير أن كتابه اقتضاء الصراط المستقيم يُعدّ من أكثر النصوص التراثية اشتغالًا على هذا المفهوم ضمنيًا.

1. الهوية بوصفها وحدة بين الظاهر والباطن

يؤسس "ابن تيمية" لرؤية تقوم على ترابط العقيدة والسلوك والشعائر، وهو ما يجعل الهوية منظومة متكاملة لا تقبل التجزئة.

2. الهوية بوصفها تمايزًا

يظهر ذلك في مبدأ مخالفة الكفار والنهي عن التشبّه، حيث التميّز الظاهري يمثل ضرورة عقدية.

3. الهوية بوصفها مشروعًا عمليًا

ليست الهوية مجرد انتماء نظري، بل تُبنى عبر الالتزام والممارسة والامتثال.

4. الهوية بوصفها حماية من الذوبان

يرى شيخ الإسلام أن التشابه يؤدي إلى التأثر ثم التبعية، ومن ثم فإن المخالفة تمثل آلية حماية الهوية.

أن مفهوم الهوية يمثل إطارًا تحليليًا مركزيًا لفهم البنى الفكرية والاجتماعية، وأن معالجته في الفكر الإسلامي كما عند "ابن تيمية" تتخذ طابعًا عمليًا يتجاوز التنظير إلى التوجيه السلوكي. كما يظهر أن المفاهيم المرتبطة بالهوية تتداخل فيما بينها، بما يعكس طبيعة هذا المفهوم المركبة، ويؤكد الحاجة إلى مقاربة تحليلية شاملة تراعي تعدد أبعاده وسياقاته.

يمثّل هذا الكتاب، في تقدير الدراسة ، أكثر من كونه مؤلَّفًا فقهيًا أو معالجةً عقديةً جزئية؛ إذ ينهض بوظيفة معرفية تأسيسية في بناء الوعي بالهوية الإسلامية، وفق منطق «الاقتضاء» الذي

قرّره "ابن تيمية". فالكتاب لا يكتفي بتقرير الأحكام أو بيان صور المخالفة، بل يعيد صياغة الانتماء الديني بوصفه وعيًا مركبًا تتفاعل فيه المعرفة والسلوك، والظاهر والباطن. ومن ثمّ يغدو الالتزام الديني عمليةً واعية تقوم على إدراكٍ نظريٍّ راسخٍ لمبدأ التميّز والمباينة، ينعكس عمليًا في سلوك منضبط، ومنظومة قيمية فاعلة، تحمي الهوية الإسلامية من الذوبان، وتضمن استمرارها في المجال الفردي والاجتماعي والحضاري، وهو ما يجعل «اقتضاء الصراط المستقيم» مشروعًا بنائيًا للهوية، لا يقتصر على تقرير صور المخالفة الشكلية الظاهرة.

في ضوء التصور الكلي الذي يقدّمه "ابن تيمية"، يمكن تعريف مفهوم الهوية الإسلامية تعريفًا جامعًا على النحو الآتي:

الهوية الإسلامية هي حقيقة الانتماء العقدي والسلوكي للأمة، المتجسّدة في الإيمان بعقيدتها، والالتزام العملي بتشريعاتها، والتمثّل الأخلاقي لقيمها، بما يُنتج تميّزًا واضحًا في السلوك والهدي والمرجعية، ويُحقق استقلال الشخصية الإسلامية فرديًا وجماعيًا عن سائر الملل والنحل. وهي عند "ابن تيمية" ليست مجرد شعور بالانتماء، ولا مجرد شعائر معزولة، بل منظومة متكاملة يتفاعل فيها الباطن مع الظاهر، والعقيدة مع العمل، والمعرفة مع الممارسة، بما يجعل المسلم شاهدًا على الناس، قائمًا بوظيفة البلاغ، ومشاركًا في صناعة التاريخ لا ذائبًا فيه. وعليه، فإن الهوية الإسلامية في هذا الإطار تُفهم بوصفها نتاجًا تراكميًا للتجربة الإيمانية والحضارية للأمة، تُصان بالمخالفة الواعية، وتترسّخ بالالتزام العملي، وتُهدَّد كلما ضعفت معالم التميّز العقدي والسلوكي.

أو يمكن تعريفها: الإيمان بعقيدة هذه الأمة، والاعتزاز بالانتماء إليها، واحترام قيمها الحضارية والثقافية، وإبراز الشعائر الإسلامية، والاعتزاز والتمسّك بها، والشعور بالتميّز والاستقلالية الفردية والجماعية، والقيام بحق الرسالة وواجب البلاغ والشهادة على الناس، وهي أيضًا محصلة ونتاج التجربة التاريخية لأمة من الأمم، وهي تحاول إثبات نجاحها في هذه الحياة.[55]

ويمكن القول أيضًا بأنها: السمات والسلوكيات والمقومات التي تميز المسلمين عن غيرهم، وتكون ذاتهم، وترتبط ارتباطًا وثيقًا وواضحًا بالوطنية والقومية المنبثقة عن الإسلام . [56]

وتتأسس الهوية الإسلامية، من منظور تحليلي، على تفاعلٍ مركّب بين المرجعية العقدية والنظام القيمي والسلوك الاجتماعي، بما يجعلها إطارًا ناظمًا لتشكّل الوعي الفردي والجماعي لدى المسلم. فهي ليست معطًى جامدًا أو شعارًا ثقافيًا، بل بناءٌ دينامي يتجدد عبر الامتثال العملي لمقتضيات الشريعة، واستحضار مقاصدها في الواقع المتغير. كما تؤدي الهوية الإسلامية وظيفةً معيارية، تضبط أنماط التفكير والسلوك، ووظيفةً تمييزية، تحفظ الخصوصية الحضارية للأمة في سياق التعدد الثقافي والتفاعل الحضاري.

في الإطار نفسه، تُعدّ السُّنّة النبوية ركيزةً أصيلة من ركائز الهوية الإسلامية، لكونها المصدر التشريعي الثاني في الإسلام، إذ تجسّد أقوال النبي ﷺ وأفعاله وتقريراته، كما تعكس منهج أصحابه رضي الله عنهم في الاقتداء به. وتمثّل السُّنّة بذلك النموذج العملي الذي يُمكّن من تحويل المبادئ العقدية والتشريعية إلى سلوكٍ واقعي، بما يسهم في بناء الهوية الإسلامية وترسيخ الشعور بالانتماء إليها.

ويعمل شيخ الإسلام، عبر منهجه التحليلي والاستقصائي والموسوعي، على إبراز أنّ الهوية الإسلامية ليست معطى جاهزاً ولا شأناً ذهنيّاً صرفاً، بل مشروع تَشكُّل مستمرّ وتطبيق عملي، يقوم على الارتباط بالأصول الشرعية، وتحويل المعرفة إلى التزام فعلي. وبهذا يتحول الدين من إطار نظري إلى نسق وجودي وعملي يوجّه الفرد في علاقاته، وخياراته، وأدواره المجتمعية.

وبهذا المعنى، فإن الكتاب يقوم بوظيفة تربوية وفكرية مزدوجة: فمن جهة، يربط القارئ بالأصول الكلية للدين، ويؤكد مركزية التميّز الشرعي في بناء الشخصية المسلمة؛ ومن جهة ثانية، يُعيد صياغة العلاقة بين المعرفة والممارسة بحيث تصبح المعرفة الدينية أساساً لحضور أخلاقي وسلوكي وفكري ممتد، ومن ثمّ، يغدو الالتزام بالدين ـ كما يعكسه هذا الكتاب ـ مسؤولية شاملة تتجاوز حدود الاعتقاد إلى الفعل، وإلى التعبير العملي عن الهوية الإسلامية بما يرسّخ الوعي، ويحفظ البناء الفكري، ويؤسس لخطّ حضاري خالد، واضح المعالم.

_10مخالفة اصحاب الجحيم في كل مكان وكل زمان

ترى الدراسة أن مبدأ مخالفة أصحاب الجحيم ، من الكفار وأولياء الشيطان، يُمثّل أصلًا شرعيًا مركزيًا في البناء العقدي والمنهجي للإسلام، وقد قرّره شيخ الإسلام "ابن تيمية" تقريرًا تأصيليًا واضحًا في كتابه. ويقوم هذا الأصل على إرساء مبدأ التميّز العقدي والسلوكي للأمة المسلمة، بما يحول دون ذوبان شخصيتها الدينية أو تمييع معالمها الحضارية.

وفي مقابل هذا المفهوم الأصيل، يبرز مفهومٌ نقيض يتمثّل في التماهي مع أصحاب الجحيم ومشابهتهم، وهو ما يُعبَّر عنه في الخطاب المعاصر بمصطلحات «الاندماج» و«التغريب» و«الذوبان» في النموذج الغربي. وتذهب الدراسة إلى أن كثيرًا من الدعوات التغريبية التي تتردّد في السياقات الفكرية والثقافية الحديثة والقديمة، لا تُعدّ سوى الوجه الآخر لترك مبدأ اقتضاء الصراط المستقيم، واستبداله بالاقتداء بالآخرين واتباع سلوكيات غير المسلمين.

وفي الاصطلاح الفكري المعاصر، يُعرَّف التغريب في معناه الأشمل، بأنه حالة من التعلّق والإعجاب بالثقافة الغربية، تتجلّى في تقليدها ومحاكاتها، والأخذ بقيمها ونظمها وأنماط حياتها، إلى الحدّ الذي يصبح فيه الفرد أو الجماعة أو المجتمع المسلم متماهِيًا معها في ميوله وعواطفه وعاداته وأذواقه العامة، مع الاعتقاد بأن تبنّي هذا النموذج هو الطريق الأمثل لتحقيق التقدّم والرقي. ويكشف هذا التعريف عن التعارض الجذري بين مشروع التغريب ومبدأ المخالفة، بوصف الأخير آليةً شرعية لحفظ الهوية الإسلامية وصيانتها من التلاشي والاغتراب.

"يعرَّف التغريب بأنه: حالات التعلّق والانبهار والإعجاب والتقليد والمحاكاة للثقافة الغربية، والأخذ بالقيم والنظم وأساليب الحياة الغربية؛ بحيث يصبح الفرد أو الجماعة أو المجتمع المسلم الذي له هذا الموقف أو الاتجاه غربيًّا في: ميوله، وعواطفه، وعاداته، وأساليب حياته وذوقه العام،..، ويرى في الأخذ بها الطريقة المثلى لتقدم جماعته أو أمته الإسلامية".[57]

في سياقٍ متصل، يبرز مفهوم العولمة بوصفه إطارًا أوسع وأشد تعقيدًا من مفهوم التغريب، وإن كان الاثنان يلتقيان في بعض المآلات. فالتغريب، في جوهره، يقوم على الدعوة الصريحة أو الضمنية إلى محاكاة الغرب في أنماط حياته وثقافته وسلوكه اليومي، بما يشمل القيم والعادات

والمظاهر الاجتماعية، وصولًا إلى التماهي مع النموذج الغربي بوصفه المثال الأعلى للتقدّم والرقي. أما العولمة، فإنها تتخذ مسارًا أكثر شمولًا، إذ تقوم على تدفّق المعارف والعلوم والمنتجات والأنماط الحضارية عبر الحدود، دون أن تُعلن في ظاهر خطابها إلزام المتلقّين بتبنّي منظومة ثقافية بعينها.أو تُعرّف بأنها عملية تكثيف التفاعل العالمي اقتصاديًا وثقافيًا، بما يؤدي إلى تداخل الهويات وإعادة تشكيلها.

غير أن هذا الحياد المزعوم للعولمة سرعان ما يتبدّد عند النظر في آثارها العميقة؛ إذ تتحوّل، في كثير من تجلياتها، إلى آلية ناعمة لإعادة تشكيل الوعي، وتجريد المجتمعات ومنها المجتمعات الإسلامية من خصوصيتها الحضارية، عبر تفكيك منظوماتها القيمية، وإعادة تعريف مفاهيمها الكبرى، وإحلال نماذج ثقافية بديلة محلّها. وبهذا المعنى، تغدو العولمة وجهًا متطوّرًا من أوجه الهيمنة والاستعمار غير المباشر؛ استعمار لا يعتمد على الجيوش أو الاحتلال العسكري، بل على أدوات المعرفة والإعلام والتقنية، وعلى إعادة هندسة الأفكار والعادات وأنماط التفكير، بما يفضي في النهاية إلى إخضاع الإرادة الثقافية والحضارية.

وفي هذا الإطار، تتجلّى راهنية المعالجة التي قدّمها شيخ الإسلام "ابن تيمية" حيث أبطل في اقتضاء الصراط المستقيم، كل تلك الدعوات السابقة واللاحقة بتوجيهه إلى أصول المخالفة، وأسّس لمبدأ المخالفة بوصفه أصلًا وقائيًا يحفظ للأمة تمايزها، ويحصّنها من الذوبان في أنماط مخالفة لعقيدتها وقيمها.

"فالدعوة إلى العولمة الثقافية لا تخرج في حقيقتها عن محاولة تذويب الثقافات والحضارات والغاء الخصوصيات الحضارية لصالح حضارة الغالب والعالم الإسلامي يعد اول المستهدفين ذلك لأن الثقافة الإسلامية التي تشكّل هوية الامة ومعالم شخصيتها الحضارية مستمدة من نور الوحي فالاستهداف يتركز حول عقيدة الامة الإسلامية".[58]

3. خاتمة استنتاجية تحليلية

خلصت هذه الدراسة، من خلال قسميها النظري والتحليلي، إلى أن كتاب اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم لشيخ الإسلام "ابن تيمية" لا يمكن النظر إليه بوصفه مصنَّفًا فقهيًا جزئيًا يقتصر على بيان أحكام التشبّه والمخالفة، بل يتعيّن فهمه في إطاره الكلي باعتباره مشروعًا معرفيًا متكاملًا لإعادة بناء الهوية الإسلامية، وضبط علاقتها بالآخر عقديًا وسلوكيًا وحضاريًا.

فقد بيّن أن مفهوم «الاقتضاء» يشكّل المفتاح المفهومي الحاكم لبنية الكتاب، إذ يدلّ على لزوم الصراط المستقيم، لزومًا واعيًا شاملًا، لا يقتصر على مستوى الاعتقاد النظري، بل يمتدّ إلى مجالات السلوك الظاهر، والعادات الاجتماعية، والرموز الثقافية.

وأظهرت الدراسة أن هذا المفهوم يقوم على قاعدة ترابط الظاهر بالباطن، بحيث يؤدّي التشابه في الهدي الظاهر في الغالب إلى مشابهة في الأخلاق والطباع، ومن ثمّ إلى اختلال في منظومة الانتماء والهوية.

وتناولت الدراسة الظهور التطبيقي لهذا التصور من خلال استقراء المواطن التي بسط فيها "ابن تيمية" مبدأ المخالفة في كتابه، مبيّنًا أن النواهي الواردة فيه لا تمثّل أحكامًا متفرقة، بل تنتظم ضمن نسق وقائي محكم، يهدف إلى سدّ ذرائع الانحراف العقدي. وقد كشفت الدراسة أن هذه النواهي تؤدّي وظيفة مزدوجة؛ إذ تحمي المجال العقدي من الاضعاف أو التسييل، وتضبط في الوقت نفسه المجال الاجتماعي والسلوكي بما يحفظ التمايز الإسلامي دون أن يفضي إلى العزلة أو القطيعة.

كما أظهرت الدراسة أن معالجة "ابن تيمية" لمسائل العدل، والمساواة، ورفض التعظيم المفضي إلى التقديس، والنهي عن مشابهة الأمم السابقة في شعائرها ورموزها، تؤكد أن المخالفة ليست موقفًا شكليًا أو ردّ فعل ظرفيًا، بل هي استراتيجية واعية لصيانة الهوية، وآلية وقائية تحول دون إعادة إنتاج أنماط الانحراف التي أهلكت الأمم السابقة. ومن ثمّ، فإن كتاب اقتضاء الصراط المستقيم يقدّم تصورًا متقدمًا للهوية الإسلامية بوصفها منظومة متكاملة تضبط السلوك الفردي والجماعي، لا خطابًا وعظيًا عابرًا أو تنظيرًا تجريديًا منفصلًا عن الواقع.

وتتمثّل الإضافة العلمية التي قدّمتها هذه الدراسة في إعادة قراءة كتاب اقتضاء الصراط المستقيم قراءةً بنائية تحليلية، تُبرز وحدته المنهجية الداخلية، وتكشف عن كونه مشروعًا متكاملًا في تأصيل الهوية الإسلامية، لا مجرد كتاب في باب المخالفة الفقهية. كما سعت الدراسة إلى نقل مفهوم المخالفة من دائرة الأحكام الجزئية إلى أفقه الكلي، بوصفه أداةً لضبط الانتماء، وآلية وعي حضاري، ومقومًا أساسًا من مقومات الاستقلال العقدي والثقافي للأمة. وبناءً على ذلك، تؤكد هذه الدراسة أن فكر "ابن تيمية" في اقتضاء الصراط المستقيم لا يزال يمتلك قدرة تفسيرية عالية على مقاربة إشكالات الواقع المعاصر، ولا سيما ما يتصل بقضايا التغريب، والذوبان الثقافي، والعولمة غير المنضبطة، من خلال تأصيل مبدأ المخالفة بوصفه فعل وعي وبناء، لا مجرد خطاب مواجهة أو رفض للآخر.

المصادر .4

[1]_ابن قيم الجوزية، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، جـ 2ص 329

[2]_ابن تيمية، مجموع فتاوى ابن تيمية، جـ 28 ص41

[3]_ابن قيم الجوزية،مصدر سابق، جـ 2صـ329

[4]_ ابن كثير، تفسير القران العظيم

[5]_ مها بنت جريس الجريس، حقيقة الهوية الإسلامية ومظاهرها في كتاب اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم (قراءة ثقافية للكتاب)، مجلة الدراسات الإسلامية، جامعة الملك سعود 1/28 (1437هـ/2016م): 217–242

[6]_رائد السمهوري، نقد الخطاب السلفي ابن تيمية نموذجا،(لندن: طوى للثقافة والنشر والاعلام، ط. 1،2010)، ص11

[7]_المصدر السابق.

[8]_المصدر السابق، ص22

[9]_المصدر السابق، ص42

[10]_المصدرالسابق، ص95

[11]_المصدرالسابق، ص110

[12]_ محمد ابو زهرة، ابن تيمية حياته وعصره، دار الفكر العربي

[13]_الألوسي، جلاء العينين في محاكمة الأحمدين

[14]_ الذهبي، تاريخ الإسلام، جـ13 ص 723

[15]_ البزار، الأعلام العلية في مناقب ابن تيمية، ص 17_18

[16]_ الذهبي، تذكرة الحفاظ، ج 4 ص 288

[17]_ابن قيم الجوزية، الوابل الصيب، ص 42

[18]_ البزار، مصدر سابق، ص 36

[19]_محمد ابو زهرة، مصدر سابق

[20]_ابن عبد الهادي، العقود الدرية، ص 20

[21]_ ابن ناصر الدين، الرد الوافر، ص 133

[22]_ابن الوردي، تاريخ ابن الوردي، ج2: 286

[23]_محمد ابو زهرة، مصدر سابق

[24]_ ابن عبد الهادي، مصدر سابق، ص91

[25]_وليد بدوي، معجم أصحاب ابن تيمية

[26]_محمد بن أحمد بن سالم السفاريني، غذاء الألباب في شرح منظومة الآداب

[27]_ ابن تيمية، مصدر سابق، جـ 3ص 245

[28]_ المصدر السابق، جـ 28 ص 41

[29]_ المصدر السابق، جـ 28 ص 55

[30]_المصدر السابق، ، جـ 28 ص 55

[31]_ابن قيم الجوزية، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، جـ 2ص 329

[32]_ ابن كثير، البداية والنهاية، جـ14 ص 54

[33]_المصدر السابق، ص 142

[34]_ المصدر السابق، جـ13 ص 321

[35]_. محمد ابو زهرة، مصدر سابق

[36]_ مرعي بن يوسف الكرمي، الشهادة الزكية، ص 41

[37]_ابن الوردي، مصدرسابق، جـ 2 ص 278

[38]_ ابن ناصر الدين، مصدر سابق، ص 24

[39]_ المصدر السابق

[40]_ابن تيمية، تحقيق د. ناصر عبدالكريم العقل، اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة اصحاب الجحيم،(الرياض: دار اشبيليا للنشر والتوزيع،ط.2،1998)، ص 74

[41]_ الألباني، صحيح الجامع

[42]_ابن تيمية، مصدر سابق، ص 94

[43]_المصدر السابق، ص 180_182

[44]_المصدر السابق، ص 360_362

[45]_ابن الوردي، مصدر سابق، جـ 2 ص 278

[46]_ابن منظور، لسان العرب

[47]_الزجاج، معاني القرآن واعرابه.

[48]_ابن تيمية، مصدر سابق، ص 183_184

[49]_ المصدر السابق، ص 94_92

[50]_المصدر السابق، ص 549_550

[51]_ المصدر السابق، ص 329_330

[52]_المصدرالسابق، ص 407

[53]_المصدر السابق، ص224_227

[54]_المصدر السابق، ص 218_220

[55]_خليل نوري العاني، الهوية الإسلامية في زمن العولمة الثقافية،(بغداد: مركز البحوث والدراسات الإسلامية، 1430ه)، ص45

[56]_ احمد المشهداني، الهوية الإسلامية مقوماتها وسماتها،(دمشق: دار الفكر، 1436ه)، ص 24

[57]_عمر التومي الشيباني، التغريب والغزو الصهيوني، مجلة الثقافة العربية، ليبيا، العدد الأول، لعام: 1982

[58]_ سارة بنت محمد بن صالح الحسني، دراسات وأبحاث في قضايا معاصرة،(مكة المكرمة: دار خالد اللحياني للنشر والتوزيع، ط،2017،1)،ص 186